
رواية
حامد بن عقيل
الرواقي
THE STOIC
الطبعة الخامسة
Jidar
Culture & Publishing

الرواقي

الكتاب: **الرواقي**

ما أثقل كاهله من وجوده المفرط

المؤلف: حامد بن عقيل

رواية

الناشر:

جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية

info@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الخامسة **2026**م

الطبعة الأولى – جدار للثقافة والنشر – الإسكندرية **2008**م

الطبعة اليونانية: ترجمة: بيرسا كوموتسي - دار الإسكندرية – أثينا **2024**م

الترقيم الدولي:**978-1-326-20684-0**

التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Title: The Stoic

Author: Hamed Bin Aqeel

Novel

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-326-20684-0

حامد بن عقيل

الرواقي

ما أثقل كاهله من وجوده المفرط

رواية

إلى..

وحشية الموسيقى في روح المعلم الكبير:

طاهر حسين - رحمه الله

"كلما شــاهد مجنوناً أو هامشــياً ســأل نفســه: من منّا على ثقة أن هذا الشخص لن يكون المُخلِّص؟!".

هذه هي مدينة جدة، لا نهائية. اليوم؛ مع سقوط المطر النادر الحضور هنا، كنتُ أضــع جملتي الأخيرة في حكاية لم أكن على ثقة أنني عشــتُ أحداثها. الكُتَّاب؛ بكل هذا الوجود الطاغي الذي يثقل ذواتهم لا يلتفتون إلى علاقتهم بالحبر الذي يسفكونه باستمرار ودأب على صفحات بيضاء ممتدة كمدن مترامية الأطراف. المدن الصــاخبة لا نهائية. يقول الكاتب: في رواقٍ ما، ليس شــرطاً أن ينتبه لوجوده أحد، كان هناك مُعلِّم مجنون وعدد من مريديه الذين قرأ عليهم أماليه قبل أن يتلاشــوا، كانوا كلما تكرر جلوســهم إلى معلمهم قلدوه في طريقة انصرافه؛ يقف فجأة كالملدوغ ويلتفت إلى يمينه ثم يمضي، وهنا يحدث دائماً أن يلحقه أحدهم بخفّيه ليسابق خطواته، وغالباً ما كان ينجح في إلباســه الخفّين قبل أن ينعطف يميناً في نهاية الرواق

ويختفي! وحين يعود المريدُ من مَهمته يجد أن البقية قد ذابوا من المكان، فيكنس الوصايا المهملة، الوصايا الأقل ثمناً، مريدو المعلّم لصوصٌ محترفون لا يحملون إلا ما خف وزنه وغلى ثمنه، وبعد ذلك ينصرف.

ماذا يعني كل هذا المطر هذا المساء بالذات، انتهيتُ من الكتابة لتغرق جدة في مطر وحشي، من النادر أن أصادف مطرها الذي لا يأتي إلا بهذه الطريقة المفاجئة والحاملة للوعيد: "جدة مدينة ملعونة وسيغرقها الله بطوفان كطوفان نوح"، "لا، لا.. نوح دعا ربه ألا يتكرر الطوفان أبداً"، "وتسونامي؟"، "ستغرق جدة ولكن بهدوء شديد وببطء، سننام طويلا وحين نستيقظ تحت الماء سنجد أنفسَنا مع الكائنات البحرية ونختنق". كنتُ أضع المخطوط تحت كيس بلاستيكي، وأقف على الرصيف المقابل لسوق غراب بطريق المدينة، لا زال الوقتُ مبكراً على موعدي مع الناشر، الوقت الآن هو المغرب أو قبله بقليل، لا أدري فالسماء ملبدة بالغيوم، وأنا أقف في انتظار سيارة أجرة لم يحجب الماء عن قائدها حقيقة أن هناك رجلاً مبللاً يقف شبه مقوّس ليحمي مخطوطته من الماء والضياع، وليحمي نفسه مما لم يكن واثقاً أنه شاهده أو سمع به على الإطلاق.

قبل ست سنوات، وفي الواحدة من بعد منتصف الليل، كنت أجلس وحيداً في مقهى دريم لاند عندما اتصل بي صديق ليدعوني، قال إنه يريد منّي المجيء لنتحدث، حين حضرتُ كان يجلس برفقة اثنين، الأول لا أتذكر من ملامحه شيئاً، ربما كان قريباً من ملصق إعلاني تجده طوال الوقت في كل شارع وفي كل منعطف حتى لا تعود تميزه أو تراه، أما الآخر فكان حضوره يشبه ما لا يستطيع الصوت أن يتلفظ به، وبوجوده الفائض عن الوصف، إلى درجة أنه بقي حبيسَ حلقي كل هذه السنوات، غيَّر مزاج

تلك الليلة حين مدّ يده إلى آلة العود وبدأ يعزف، كانت القسوة هي كل ما بدأ يتسرب ليدل على جمالٍ لا نهائي لموسيقاه، بعد أن ينتصف الليل، بعد أن يتجه حثيثاً نحو الأفول فإن من التطرف سكب كل هذا الصوت في غرفة ضيقة خصوصاً عندما يمتزج في عزفه الألم بالعنف مع ما يتخلله من أنين مفعم بالحرية. أما صوته فكان وهجاً نحاسياً شق ما بقي من ليلنا ونحن ننصت. راح العازفُ يعامل آلته بمحبة تفيض عن فقهنا، بينما طفا الحزن على وجوهنا نحن الثلاثة الذين أطرقنا إلى الأرض، لا بد أن نساءً تخلّقن في شرفة قريبة وكنّ يطالعن ما يترسب في قلوبنا من غبار خلّفه هذا الصوت الشديد المرارة والشجن، الصوت الغارق في قسوة الأرض منذ الأزل.

تلك الليلة؛ امتدتْ جلستنا إلى وقتٍ متأخر، عرفت أن العازف خرج من اليمن وهو في العاشرة من عمره، جاء مشياً للبحث عن عملٍ يوفر له ثمن بندقية يُفرغُ رصاصها في قلب الإمام.

- كنتُ في السادسة من عمري حين اكتشفتُ أن من ظننتُه أبي ليس سوى عمي. والحق أنه كان نِعمَ الأب منذ وعيتُ الحياة معتقداً أنه أبي، وحتى بعد أن عرفتُ الحقيقة. كان كريماً معي إلا حين ضنّ بتسليم أيٍّ من أولاده لعامل الإمام في "زراجة" حتى يكون رهينة وقام بتسليمي أنا. جرت العادة أن يأخذ الإمام ابناً لكل كبير في قرية أو ناحية يتوقع أن يثور أهلها عليه. وقد قدمني عمي لعامل الإمام لأكون رهينةً تضمن ولاءه حتى تُحل قضية الحرب التي نشبتْ بين قريتنا وقرية "بَردُّون" المجاورة. أتذكر ذلك

اليوم الذي استيقظتُ فيه لأجد أن قريتنا "تِّنَّنْ" محاصرة بجنود الإمام. حملوني وحدي، نيابة عن كل أطفال قريتي، إلى ناحية "زراجة" التابعة لمحافظة ذمار. وهناك أودعوني قلعة "المَرْدَع". شاركني هذا المصير طفلٌ من قرية "بَردون".

توقف عن سرد طفولته، وعاد يداعب أوتار عوده كمؤشر على أنه سيبدأ معزوفة ما. لكنه توقف ليضيف بأسى:

- أنا وذلك الطفل البردوني دفعنا ثمن حرب لا ندري لماذا ولا متى نشبت بين القريتين. كل ما أتذكر أن الرجال البالغين كانوا يستغلون الأطفال في جمع بقايا الرصاص الفارغ لتعبئته من جديد، كما يستغلون النساء لبناء المتاريس المتقدمة لأن أحداً من محاربي القريتين لا يطلق النار على امرأة. حين دخلتُ القلعة كان عمري ثمان سنوات وخرجتُ منها و أنا في العاشرة عازماً على أن لا أعود إلى "تنَّن" إلا ببندقية.

طلبتُ من سائق سيارة الأجرة المرور عبر شارع حائل، من الجنوب إلى الشمال، قطعنا طريق المدينة دون أن نتبادل الكلمات، ينزلق السعوديون إلى الكرسي المجاور لكرسي قائد سيارة الأجرة، يفعلون ذلك بحميمية غريبة لا تدل على شيء سوى أنهم لازالوا يسكنون قراهم البعيدة، أو أنها لا زالت تتشبث بما بقي منهم خارج المدينة والصّخب والوقت المتسرب بسرعة الضوء من بين أصابعهم. لهذا كان من الطبيعي جدّاً أن يبدو ركوبي في المقعد الخلفي تصرفاً غير لائق في نظر السائق، أو أنه مُستغرَب على الأقل، كانت وجهتي مقهى دريم لاند في الشمال، قريباً من ميدان الطائرة بحيّ

الصـفا، لكنني شـعرتُ بحنين ما لرؤية الواجهة الزجاجية المطلة على شـارع حائل، هناك في الدور الثاني من المخابز الفرنسـية كنتُ أراني جالسـاً في مواجهتها، وكانت تنظر من خلال الزجاج المغسـول بالماء والحزن، طلبتُ من السائق أن يتوقف في الجهة المقابلة وأنزلتُ الزجاج لأغتسل بالرذاذ الخفيف الذي لازال ينزّ من سماء الله كاللذة. كانت مريم تشيح بوجهها عنّي وتنظر إلى الشارع، وكأنها تعدّ مستنقعاته غارقة في التفكير، وكنت جالساً أمامها أشرب قهوتي وأنظر إليها، تأملتُ المشـهد، لا بد أننا كنّا نتحدث عن الغد، في مكان ما انفجر الغد بيننا كبركان فحدث ما لم يتوجب عليه أن يكون قاسـياً إلى ذلك الحدّ. حين التفتتْ إليّ جالسـاً أمامها كانتْ تتحدث بشـكل متواصـل وتشـير بيديها، ثم وقفتْ لتجمع ما بقي منها وتغادر. ركبتْ سـيارة أجرة كانت في انتظارها، بينما بقيتُ هناك أشرب قهوتي، كنتُ أشير إليَّ أن اتبعها، لكنني لم أنتبه إلى كل ذلك، وأشعلتُ سيجارتي. أغلقتُ النافذة وطلبتُ من السائق أن يواصل، وحين تجاوزتُ المقهى بقليل نظرتُ إلى الوراء لأجد أني قد غادرتُ المقهى بدوري، أقف على الرصيف منتظراً سـيارة أجرة، أو ربما كنتُ أنتظر عودتها، لا أدري. كل هذا اختفى بفعل ازدحام السـيارات والمطر الهادئ المتواصل. حين سـويتُ جلستي خلف السائق وضعتُ يدي على المخطوط، وتساءلت: حتى هنا؛ لماذا تختفي مريم؟!.

بعد أن انتظم المجلسُ بمريديه رفع المعلمُ عرشـه بينهم ثم أطرق إلى الأرض قليلاً، كعادته قبل أن يبدأ في سـرد وصـاياه، ثم حين رفع رأسه سكت كل شيء سوى همهمة الأوراق المُشرعة للتلقي:

- "نقضُ معتقدات الناس بســهولة لا يتأتى لملك، إذ لا بدّ لي من اختلاق حروب كثيرة تجعلني أضــمن دخول أفراد الشــعب تحت عباءتي. إن التفكير في الجغرافيا أمرٌ مرهقٌ جداً، فالجغرافيا ليســت كالزمن، جامدة لا تتحرك إلا بجيش. حينئذٍ أفكر في معنى الشر، ويستجلب هذا أفكاراً لا حصر لها عن معنى الخير. الخير والشــر قوتان؛ ما عداهما نتاج عاطل ليأس ما. فكر الملك، ثم أضـاف: في الجوار ينام دبّ لا بد من ترويضه، ملك آخر وشعب آخر، ولأنه خارج جغرافيا مملكتي سـيكون خيره شـرّاً أبدياً، وخيراتي شـروراً تقض مضجعه. إنّ تعريف الأشــياء التي لا ضــد لها عمل شــاق يجعل من الفلاســفة مهرجين لا أكثر، لهذا أفكّر كثيراً في جلب ضــد مناســب للسّــلام، وعندما تراق الدماء ويطرق اليتمُ أبواباً كثيرة، كانت موصدة في وجه المآسي، سيعلم شعبي حينها كم من سـاعات عمره قضـاها في الدّعة، إنهم أقل شـأناً من التفكير بهذه الطريقة: ماذا لو؟ لذلك بدأتُ أعدّ العدّة لفعل مناســب يقيهم عناء الســفســطة والجدل، وعندما تخاف الجماعة الواحدة تتضــامن على ما في طيات ائتلافها من شــتات، حتى إن حالات الانتحار أثناء الحروب تقلّ بنســبة كبيرة، ويتعلّم الناس تجاهل أحزانهم الخاصــة، فيفرّغون آهاتهم الباحثة عن حب أو يد رحيمة في عمل يتجاوز حدّ محاسبة فرد يتطفل على مكاسب المجموع.

ثم أضاف:

- لقد خبرتُ الشعوب، وعرفتُ أن سعي أي شعب لاكتساب خير ما؛ هو ما يدفع الآخر خارج حدوده للتساؤل: أي شر يريدني به جاري؟ فاختلاف الهواء والأرض يجعل من قيمة النبل في جزيرة ما قيمة مبتذلة في جزيرة أخرى. عليّ أن أَظهرَ لشعبي بعد هذه العمر من التأمل أكثر من مجرّد ملك، إذ ربما يفكّر الشعب غداً بصوتٍ عال، وربما قالوا: ملكٌ حكيم. فلنبدأ إذن في صناعة خيرنا، متناسين ما يعنيه هذا الخير من بؤس للآخرين، إنها المرحلة الأكثر تحدياً وعملاً، إنها مرحلة ترويض الدّب".

مريم كائن جديد، بثمانية عشــر ربيعاً كانت تجلس في مقهى رنديفو، رائحة البحر والأضـواء الباهتة وموسـيقى لا أدري من أي زمنٍ سحيقٍ تنبعث كانتْ حاضــرة أيضــاً، كان أول ما لفت انتباهي إلى وجودها هو تململي في جلســة ضــمت أصــدقاء يتحدثون دون توقف، كانت هي أيضــاً صــامتة وتنظر إلى البعيد، ومن خلال الحاجز الذي يفصــل مكان طاولات النســاء عن الرجال التقتْ نظراتنا، وبلا مبالاة انتهتْ هذه اللحظات المســروقة، بعد أســبوع جلســتُ على ذات الطاولة وحيداً، وكان رفيقاتها على الطاولة الأخرى يثرثرن إلى ما لا نهاية، حين التقت عيناي بعيني إحداهن أشــرتُ إليها وبلا مقدمات ملمّحاً إلى الأســبوع المنصــرم، ما هي إلا لحظات حتى انشــغل بقية رفيقات هذه الفتاة في تفسـير إشـاراتي، ومنهن من كانت تطالبني بمزيد من الإيضـاح، إلى حد كبير اعتقدتُ أنهن قد فهمن عن أي وجه أبحث، وإلى حد كبير فهمتُ أن هذا الوجه لم يكن راغباً في المجيء الليلة.

- مكتئبة ومقهورة، لكنني على استعداد لتحمّل أضعاف أضعاف هذا الألم لأكون لساعة واحدة معك.
- اتقي الله، كنتُ سأسميك الشهيدة مريم.
- الله يكسر يده، ما ترك فيّ خليةً لم يضربها، كان يضربني بحقد.

صمتتْ، قبل أن تستبدل نبرة صوتها المتألمة بنبرة عابثة:

- لكننا قضينا ليلة لن أنساها.

في تلك الليلة؛ قبل أن أعرفها بيوم واحد ناولتُ رقمي لأول فتاة بادلتها لغة مورس قبل أن يتحول رنديفو إلى قاعة ضخمة لإرسال التلغراف، هذه الفتاة همست لي وهي تأخذ الرقم:

- سأعطيها رقمك، اسمها هنادي، وستتصل بك إن تذكرتك، لا أظنها تتذكرك أو تتذكر سواك لأنها..

وضحكتْ، لم تكمل لكنني فهمتُ أن هنادي لا تهتم.

عرفت من مريم فيما بعد أن فتاة إشـــارات مورس هي ابنة خالتها لطيفة:

- مجنونة، وعلى استعداد أن تستمر في إلقاء ملاحظاتها حول العالم المزري لثلاثين سنة أخرى.

لم يكن مقهى دريم لاند قد فتح أبوابه حين وصـــلنا إليه، بعض المســـاجد كانت قد جمعت صلاتي المغرب والعشاء بسبب المطر الذي ربما يتسبب في منع المصـــلين من العودة لصـــلاة العشـــاء، بينما كان بعض أئمة المســـاجد الأخرى في انتظار طوفان حتى يأذنوا للناس بالبقاء في منازلهم، وحتى لو جمع

كل أئمة المساجد الصلاتين فإن هذا لن يشفع لمحل واحد بأن يُبقي أبوابه مشرعة وقت الصلاة، تقليد لم يسبقنا إليه أحد منذ آدم ولن يتبعه أحد إلى يوم الدين، نحن أمّة فريدة إلى درجة لا يصدقها عقل سوي.

عندما دخلتُ المقهى حرصتُ على أن يراني أحد العاملين فيه، سيأتيني، كالعادة، بزجاجة ماء وكأس فارغة إلا من قطعة ثلج وحيدة لأبتلعها ثم بقهوة تركية متوسطة المرارة. جلست في زاوية بعيدة عن التلفزيون الضخم وبدأت أتصفح الصحف. الحق أن جلوسي الطويل لسنوات متتالية في دريم لاند عودني على القراءة والتأمل في وسط ضجيج يبلغ ذروته حين يلعب الأهلي والاتحاد معاً، أو أن يلعب منتخب مصر مع فريق إفريقي منافس مباراةً منقولة على إحدى قنوات البث الحصري التي يوفرها المقهى، في الحالة الثانية أجدني واقفاً وسط أدغال إفريقيا، حيث الجمال الأخاذ والغموض والسحر والتطرف الشعوري المبالغ فيه. كل هذا "التعوّد" المتراكم بمستوياته المختلفة لا يُغفل التقاط الضجيج الخجول للمساهمين وقد تحلّقوا حول برنامج تحليلي لسوق الأسهم السعودية المنهارة، حيث تتجلى ضجة هؤلاء التعساء في زفراتٍ مكبوتة وابتسامات تريد أن تنفي عن صاحبها شبهة القهر الذي وقع عليه، إلى غير ذلك من صرير الأسنان وفرقعة الأصابع والهمسات الساخطة. ليس على الإنسان أن يتعامل مع الأمل على أنه ما يترقب حدوثه، بل لا بد من الإيمان بأن الأمل هو أسلوب حياة يعني أننا نأمل لأننا نعيش الآن ليس أكثر، وبهذا اليقين سيكون الغد مشرقاً، قد يكون هذا هو الفرق البسيط، وغير المرئي، بين مفهوم الأمل وبين مفهوم الجشع في أذهان هؤلاء المساكين.

يتأمّل الكاتب آلة العود. كان جالساً برفقة صديقه الناشر الذي دعاه إلى جلسة خاصة في شقته الصغيرة بشارع صاري، قال إنه يرغب في الاحتفال

بالكتاب الصـادر أخيراً، حدث هذا منذ عامين أو يزيد. بعد أن صـب الكاتب لنفســه نصــف كأس من نبيذ محلي الصــنع نظر إلى الكأس للحظة قبل أن يتذوقه:

- طعمه حاد وحارق.

شرب الناشر جرعة من كأسه ولم يُعلّق، وأضاف الكاتب بعد أن ابتلع قطعة ثلج:

- أتوق لشــرب زجاجة نبيذ إيطالي كاملة، وحده النبيذ الإيطالي الذي يعيدني إلى مزارع العنب التي كان أبي يرعاها أكثر من أي من مزارعه الأخرى، العنب متوحش، حتى دون أن تحوله إلى نبيذ فإن له طعماً حادّاً، كما أنه لا يقبل أن تســرف في أكله، كأنه يحافظ على أدبيات تناوله حتى وهو على طبيعته الأولى.

سكت لدقيقة، ثم أضاف:

- العنب والنخيل متوحشان بطريقة ما!

ثم ضحك وشـرب جرعة أخرى قبل أن يتناول آلة العود ويبدأ مداعبتها دون هدى.

المرة الأخرى التي ســمعتُه فيها يعزفُ العود كانت عند صــديقنا المشــترك الذي دعاني لسماعه أول مرة، فقط نحن الثلاثة. تحدث العازف بسنينه التي جاوزت الستين عن آلته النارية:

- **قبل منتصــف الليل كنتُ أســير في أحد شــوارع الطائف، في حي طالع قريباً من خان المفتي، حين رأيتُ ضــوء احتفال في أحد**

الأزقة ينبعث منه صوتٌ أخاذ لم أسمع بمثله إلا في الراديو، مشيتُ نحو الصوت كمن يسير في المنام، وصعدت الدّرج حتى بلغت السطح، حيث كان أهل البيت يقيمون احتفالاً علمتُ في ما بعد أنه كان لمناسبة عودة ابنهم من بعثة تعليمية بمصر، تقدمت أشق طريقي بين الجموع المتكدسة على مدخل السطح حتى رأيته لأول مرة، كان طلال مدّاح في صدر المجلس المتسع باتساع السطح ممسكاً بآلة العود التي لم يسبق لي أن رأيتها في حياتي، كانت هذه اللحظة أبديةً وشاسعة كحقول الذرة التي قطعتها سيراً من اليمن حتى مدينة الطائف، وباتساع الأودية والشعاب والجبال الراسخة منذ الأزل على حافة البحر الأحمر كي تميز الكائنات الجبلية بشقائها الذي يخلقها من جديد كلما تكرّر.

سألتُه:

- كانت المرة الأولى التي ترى فيها آلة العود؟

فنظر إليَّ طويلاً قبل أن يجيب:

- إن ما قبل رؤيتها كان عهد جاهليتي، لأول مرّة أقرر أن هذه الآلة هي البندقية التي خرجتُ من اليمن قبل أربع سنوات من هذه الحادثة لأبتاعها وأعود بها إلى اليمن لأقتل الإمام!

ثم أضاف:

- كانت كل ما أريدُ منذ تلك الليلة. إن الأبدية تمرّ في لحظة محملة بكل ما نرغب في تحقيقه عبر سنواتٍ طوال. انتهى عهد الإمام،

وأنا لم أعد إلى وطني، لكن اليمن كان دائماً معي كفيض أفلوطين، الآلهة التي لا نذهب إليها بل هي من يأتي إلينا.

وأشار إلى قلبه.

- **كان هذا الإيمان الجديد الذي اختبرته تلك الليلة هو ما يفسر لي عزفه أول ليلة سمعتُه فيها، حين عبّر عن قسوة الطبيعة إذ يعتصر الألمُ الحريةَ ليعيد خلقها في موسيقى متناهية العذوبة والقوة والسخط والأمل، وهو ذات الإيمان الذي جعلني أميِّزُ موسيقاه كلما سمعتها بعد ذلك، أن يشق قلبَك صوتٌ نحاسي حتى لا تعود قادراً على الإنصات أقلّ مما يجب. نعم، بعد تلك الليلة أدركتُ أشياء كثيرة، على سبيل المثال، أن ما بين مدينتي ذمار والطائف لا يمكن أن يقاس بالمسافة بل بمدى قدرة الصوت الجامح على الوصول. أو أن الإنسان لا يكون شاباً إلا حين ينزل المطر أو تبدأ الموسيقى في العزف، أو كإدراكي أن ما تقوله اليد ليس صادقاً قدر صدق الروح حين تستخدم اليدَ للبوح.**

لم تمضِ سوى ساعة حتى دخل الناشر للمقهى، ليست هيئته الدالة على استعجاله الحضور جديدةً عليّ، ولعل هذه الهيئة هي ما يجعلني أحرص على التعامل معه دون سواه، إضافة إلى مهنيته التي أحترمها، فهو لا ينشر كتاباً لم يقرأه، ولا يعيش على استحلاب كتّابه كما يفعل كثيرون غيره، ولعل أهم أسباب حرصي على هذا الكائن الراكض هو أن الصداقة امتيازٌ لا أجيد الحصول عليه إلا كل بضع سنوات لمرة واحدة، وغالباً ما أفسد هذا الامتياز!

حين جلس طلبت له قهوته التركية الشديدة المرارة، صناعة النشر، ولاسيما في شـرقنا العربي، شـديدة المرارة أيضـاً، ثم تحدثنا. قال إنه يكره أن تمطر سـماء جدّة، وإن المطر في الطائف لا يزحف بذرات الغبار نحو الأرض كما يحدث هنا، تاركاً الطين خلفه والمستنقعات. لم تدم جلستنا لأكثر من نصف ساعة، يبدو أنه فهم أنني بحاجة إلى النوم، بينما لا أشك أنه كان على عجلة من أمره، حتى عندما يذهب إلى نومه فإنه، بالتأكيد، يهرول إليه هرولة.
حمل المخطوط وانصـرفنا، وإلى أن أوصـلني إلى منزلي القريب في حي الصـفا فإن أحاديثنا لم تتجاوز بضـع تعليقات على ما خلفه المطر من بحيرات صغيرة بلون التراب في الفجوات الكثيرة لشوارع عروس البحر والأسى. حين وصلنا شكرته على لطفه، فالتفت إلى المخطوط وقال:

- بلا عنوان!
- وما الفائدة؟، ليكن أول كتاب بلا عنوان وبلا اسم مؤلف وبلا أرقام للصـفحات، ما يبقى يا صـديقي ليس أكثر من المتن، وربما لن يبقى شيء.

ابتسم قبل أن ألتفت صاعداً درج منزلي، وكنتُ أسمع صوت محرك سيارته يبتعد. كل ما يبقى خارج الله ليس أكثر من مفازة أو عدم، لا شـيء سـوى العدم، هكذا كنتُ أقول لنفسـي وأنا أدلف إلى منزلي الغارق في الظلام والعزلة.

لا يحدث أن يغرق الرواق في الظلمة إلا حين يسـتشـعر المريدون حزن المعلم وألمه، هل يمكن أن يجهل أحد مريديه ما تعنيه له الانفعالات؟ كان المعلم قد أخبرهم أن الانفعالات هي كل ما يجعل من الإنسـان نائياً وبعيداً عن جنسـه البشـري، وأن يأسـه من ولادة

إنسان كوني هو ما سيجعله مجرد مسخٍ هو وتعاليمه المزجاة في زمن ركد فيه كل شيء حتى حراك العقل، هذا العقل الذي اغتاله الحُفَّاظُ ولم يبكه أحد:

- "إن الوجود الذي لا يؤمن بضرورة ولادة مراجعة ما، ويسعى جهده لنفي المتأملين، لهو وجود ينحدر بأفراده ويَعدهم بالعدم. إنني لا أستطيع أن أناجي النجوم الآن قائلاً: "أيتها النجوم الساهرة احرسي هذا الشعب". كيف لنجوم وضاءة عبرتْ كل هذه السموات ونفذت إلى أبعد ما تستطيع أن تحرس شعباً لم يولد بعد؟!". هكذا بدأ المعلم خطابه إلى مريديه،

وأردف:

- "إن ما يقوله الملك في تأملاته جديرٌ بإصغائنا. ذات يوم رغب الملك في التنزه قليلاً، فخرج إلى حديقة قصره. يبدو الصباح عذباً ومليئاً بالروائح المختلطة والأصوات الهامسة. أخذ يجول وحيداً في ممرات الحديقة التي يبهره فيها منظرُ أحواض الورود مع أنه يكررُ مشاهدتها كل يوم، لذا كان في كل مرّة يجد نفسه غارقاً في التأمل والتفكير حول معنى الورود. فعلى الرغم من ضعفها الظاهر إلا أنها تمتلك من القوة ما يهدم روحاً مهمومة، ظهور وردة في مسارب روح عابسة وجادّة كفيل بأن يحولها إلى الغرق الكامل في الإطراء.

توقف الملك في منتصف أحد الممرات محاولاً نفض ما علق بذهنه من مفردة "الإطراء". لكنه كان عاجزاً تماماً عن فقه ما يمكن أن يجعل من مثل هذه الكلمة كلمةً خطيرة. إنني أستطيع أن أكتشف حقيقة ما ينتظرني كملك على لسان مهرّج عجوز محترف، لكن ماذا عن حكيم يضـع كرسـيّه بجوار كرسـيّ الحكم ويمنحني عقله لساعات كي أقول كلمتي، أو أوقّع مرسوماً ملكياً يصبح، قبل أن يجفّ حبره، قانوناً يحدد ما يجب أن يسلكه شعبي في مستقبل أيامهم من سلوك تجاه أمر ما!

قال الملك لنفسه:

- إننا لا نتلهف على ما في أيدينا، ولا نعطي قيمة صـحيحة وعادلة للمتاح والممكن، فنظلّ نسـعى طوال حياتنا لبلوغ ما وراء السياج، سياج المستحيل أو الصعب، وحال بلوغه نشعر تجاهه باشمئزازٍ ما، فالارتواء عدو اللهفة! لكنني أشعر بالأسف على من لا يذهب برغباته إلى أقصاها، فيعيش في وهم تميزه وقُدسيته، ويظل رهناً لخطوة قادمة ناسفة لأعوام سابقة من البلاء باسم التخفف والتعفف والارتفاع عن الرغائب. نظر الملك إلى الأرضِ، ثم فكّر في يقين مناسب لمملكته، عندما ينمو طفل على غير ما اعتاد الناس من شهوات، فلا بد أن ذلك سيكون مدعاة فخر سري له ومصدر توقير من المحيطين به وإشادة بتميزه. عندها سيكون عليه أن يبلغ الشيخوخة محروماً مميزاً، أو أن يتنازل عن وهم زائف اسمه التميز، فيبكي أعوامه التي

سبق أن قضاها في ترهُّب لا معنى له سوى نيل استحسان من أفنوا أعمارهم في اقتناص اللذات ثم جلســـوا يتحدثون عن هذا المميز البائس وهم يتقلبون في نعمائهم!

وأضاف:

- إنني آســى على شــعبي هذا، فالوردة لا تعني لهم أكثر من باقة يلفها البلاســتك لتجوب أروقه المســتشــفيات، ومثل ذلك الشـــموع، والكلمات المقتضـــبة اللطيفة، وكذا علب الهدايا الناعمة المدهشة. إنهم يقضون وقتهم في التفكير: ما المحلَّلِ وما المحرّم؟ وكيف نصل إلى الجنّة دون أن تتخطَّفُنا الأهواء؟، فيتناســون أشــياء كثيرة كالوردة، أشــياء تســتطيع تغيير وجه عالمهم المكفهرّ".

روحه تسـيل مع النغم، وبأحلام العود قصـد حجرته الصـغيرة في جبل البـازم. منهـا كـان يرى الطـائف تحتـه ويُسـرج خيـالاتـه ليسـهر وحيـداً، مسـتمتعاً بوحـدتـه قبل أن يكتشـف العود هـذه الليلـة بين يدي طلال مداح، أو قبل أن يكتشـفه الحزنُ والجمالُ والرحيل. عبثاً حدّق من نافذة حجرته لكن ليل المدينة طوى الشـوارع والبيوت وذهب بها بعيداً، طارد ما يتذكره من سـكون الليل فلم يجد شـيئاً سـوى الأوتار تتملكه وتدفعه ليكسر الصمتَ ويجد نفسه.

لم يكمل الرابعة عشـر من عمره، لكنه قرر تلك الليلة أن يبتاع بندقيته الفريـدة ويطلق الرصـاصَ على كل أئمـة الأرض الـذين جعلوه محكوماً بالغربة والترحال، وما أن انبلج صـباح اليوم التالي حتى بادر مُسـتجيباً لجاره الذي كان لا يكل من تقديم عرضـه المتكرر طالباً شـراء محتويات دكانه البسـيطة، ليس هناك الكثير، فقط بعض الأدوات لمعالجة عجلات ومفـاصـل دراجـات الأطفـال الهـوائيـة، وبعض الإطـارات، والكثير من

الذكريات المسفوحة على أرضية ذلك العقاروعلى جدرانه. باع العازف محتويات دكانه ليشتري إيمانه الخاص، واعتكف عليه لثلاثة أشهر يدندن بحثاً عن مهبّ عبقري يحمل روحَ الفنان إلى كل شبر من الأرض. ولشدة عنايته بسميره الجديد قرر في إحدى الليالي أن يدهنه بالزيت، لكن قلبه كاد ينخلع حين استيقظ في صباح اليوم التالي فوجد أن خشب عوده قد صارَ مُهلهلاً فارتخت أوتار الحلم.

فَزِعٍ إلى النجار اليمني الأقرب من منزله، ليداوي وجع عوده ويعيد إليه ما أذهبه الفنان باسم محبته الزائدة، لكن اليماني اعتذر له لأنه لا يستطيع إلا المحاولة، وهذه المحاولة لم تتمخض إلا عن ترميم بالكاد يجعل العود جديراً بحمل مسماه:

- **عزفتُ عليه، واحتفظتُ به لسنوات طوال بعد ذلك. كان أول آلة علمتني النطق، ومنها تعلمتُ أن المحبة حين تفيض عن الحاجة تتحول إلى جناية.**

مدّ يده إلى عوده، وقبل أن يعزف، أضاف بأسى:

- **إن الجناية التي نقترفها بدافع الحب تتضاعف كل يوم، إنها لا تتوقف أبداً. كلما تذكرتُ ما فعلته بعودي الأول عاودني ذات الشعور الذي اعتصر قلبي عندما استيقظتُ على منظره المشوّه في ذلك الصباح البعيد.**

لم أخرج منذ يومين، بقيتُ في منزلي، منصتاً إلى الموسيقى، من موزارت إلى الدوكالي إلى محمد سعد عبدالله إلى طلال مداح مروراً بتقاسيم فريد الأطرش، وانتهاء بفاجنر: ريتشارد فاجنر، وخصوصاً لوهنجرين، هذه الأوبرا

التي لا بد لكل من يســتمع إليها أن يجعل من الموســيقى زاداً يومياً لا يمكن الاســتغناء عنه، فالجو الأســطوري والعنف الذي عبّرتْ عنه يجعل مؤلفها أحد أبرز الفنانين قرباً من معرفة أن ما وراء الواقع هو الواقع ذاته، حتى لكأنه يكرر الصــيغ غير الواقعية للحياة ليحافظ على وحدة الفن. كذلك أعدتُ الاســتماع إلى بارتســيفال والهولندي الطائر لأســتعيد النموذج الأسطوري للإنسان الذي حلم به هذا الموسيقي المتطرف، حين يصوِّر ذلك الإنسان الذي يضحي بسعادته في سبيل الفكرة التي يؤمن بها. ولعل السر الذي يربطني بموســيقى هذا الفيلســوف هو أنه كان يبدع موســيقاه بوعي يوناني كانت مفردة موســيقى تدل فيه على كافة الفنون. لا شــيء ســوى الموســيقى، وليومين كان هذا كل ما كنتُ أفعله بعد أن غادرني المخطوط. يومان متشــابهان لم يختلف عنهما مســاء هذا اليوم إلا حين قمتُ بأداء واجب الحضور الذي نصحني به الناشر حين حدثني عن ملتقى ثقافي حول الشِعر:

من المهم أن تكون حاضــراً، ليس من الضــروري أن تشــارك، لكن لا بد أن تحضر. أعرف كيف تفكّر، لكنني سأنتظرك.

لا أفهم لماذا يجب على كاتب أن يحضــر ليُري وجهه للصــحافة، وهي التي تتعامل معه على أنه مادة تحشو بها بياض صفحاتها كلّ يوم. بالنسبة لي لم يكن الأمر سوى هلعٍ مستمر، فالصحفي ليس أكثر من مخبر مهمته التنقيب فيك عن مادة إعلامية حتى لو كان ثمن هذه المادة أن يُسلِّط الضوء عليك إلى أن تحترق، في نهاية الأمر أنت في ذيل اهتماماته.

نفضتُ هذه الأفكار وأنا أجلس خلف سائق سيارة أجرة هو أول من صادفني عندما خرجتُ إلى الشــارع لأدخل إلى المدينة وأنا أجر خطواتي، لم أشــر إليه لكنه توقف، ركبت ولم أزد عن إعطائه العنوان: "فندق الكعكي"، لينطلق.

وباتجاه الجنوب رحتُ أتأمّلُ التغيرات التي طرأت فجأة على مدينة جدة، هذه المدينة التي استيقظت ذات يوم لتجد أن عدد ساكنيها قد تضاعف، فتحولت طرقها السريعة إلى معابر سلحفائية مهمتها لم تعد إيصال عابريها إلى الجهات التي يقصدونها بل أصبحت أولوية هذه الطرق تكمن في تدريبهم على الصبر. حتى الأحياء تغيّرت كثيراً، حين تحوّل السائق عن طريق المدينة السريع متجهاً للغرب عبر كوبري فلسطين كان حي بني مالك يقترب بحلته الجديدة، العمارات التجارية تطل على شارع فلسطين لتخبئ خلفها الأزقة الأكثر آدمية من هذا الإسمنت المتطاول. حين سلكنا شارع السبعين باتجاه الجنوب كانت أطلال الورش ببني مالك تلوح في الأفق، لم يعد هناك سوى الجسور والكباري والأنفاق لاستيعاب الطوفان البشري الذي يتضاعف كل عام، وكذلك العمارات التجارية والمكاتب التي تريد تدجين هذا الطوفان ليلهث بين دكاكينها ومكاتبها مصاباً بحمّى الاستهلاك لا أكثر. نعم، كل شيء آدمي يرتد إلى الداخل؛ وربما يموت.

كل شيء بالنسبة إلى مريم كان بسيطاً:

- لن تتوه، حين تنتهي من ورش بني مالك التي على يسارك وأنت متجه نحو الشرق تنعطف يساراً لتتجه شمالاً، ثم تدخل الحي مع أول مدخل تجده على يسارك، سيكون الشارع الذي تدخله على هيئة حرف تي، إذا بلغت نهايته تنعطف يساراً. ستكون البناية الثالثة إلى اليسار.

نعم، كان وصفها للمنزل بسيطاً وبريئاً كبساطتها هي. كل شيء يأتي إلى اليسار، وبشبه دائرة تشتمل الجهات الأربع، بدءاً من الشرق وانتهاء

بالجنوب. كانت الســاعة تقترب من الثالثة فجراً حين انطلقتُ باتجاهها. كنّا قد تحدثنا عبر الهاتف عشـرات المرات خلال أقل من شـهر، عرفتُ منها أنها تقيم في حي بني مالك مع أختها المتزوجة، وأنها يتيمة الأب، وأن أمها وبقية أخوتها يســكنون المدينة المنورة، وأن القائم على أســرتهم هو أخوها الكبير عبدالمجيد. هذا الأخ الذي يكبرها بثمان سنوات فقط، وأنها تستعد لدخول جامعة الملك عبدالعزيز بداية العام القادم. كل هذا كانت تكرره بأشــكال مختلفة وبتفاصيل إضافية في كل مرّة لتغذي الوقت الذي كان يتخلّق بيننا.

حين وصــلتُ باب البناية التي وصــفتها لي تجاوزتها ببنايتين، ثم ترجلت من ســيارتي لأعبر رصـيف البنايتين وأدخل البناية التي نسـيت مريم أن تخبرني عن أي طابق فيها ذاك الذي تســكنه أختها، أو رقم الشــقة. فبدأتُ صــعود الدرج بهدوء لأجدها تنتظرني خلف باب موارب لمنزل في الطابق الثالث. حين رأيتها لأول مرّة تخيلتُ أن وصــف ليليت الوارد في ســفر التكوين من العهد القديم قد تجسّــد أمامي، كانت ســمراء طويلة وبشــعر طويل فاحم، هذا الشــعر المفرود على كتفيها بلا نهاية، لم نتبادل ســوى بعض العبارات البسـيطة والهامســة، لتمد يدها بحقيبة ورقية متوســطة الحجم، تناولتها وانصــرفت. وحين بلغتُ نهاية ســلّم الدور الثالث التفتُّ لأراها تتراجع قليلاً خلف الباب وتبتســم، بشــفتين مكتنزتين وعينين يضـيئهما الحبور تحت رموش طويلة وفاتنة.

وضــعتُ الحقيبة الورقية على مقعد الراكب في ســيارتي وألقيتُ نظرة على محتوياتها، كان فيها مغلّفان ومصحف صغير داخل علبة فضّية منقوشـة. تحركتُ عائداً إلى منزلي وأنا أفكّر في ليليت، ماذا لو كانت بالفعل هي هي ذلك المخلوق من طين؟ المرأة النّد التي هربتْ من جنّـة الله كي لا تخضـع لآدم

ونظامه الذكوري التراتبي؟ ماذا لو كانت هي هي التي هربت من قيدها حتى لو كان ثمن ذلك أن تتوه في هذا العالم؟، ثم هل أوصلها تيهها الطويل، بعد هذه الأحقاب الزمنية الممتدة منذ آدم حتى هذه الليلة، إلى هذه المدينة تحديداً كي تستعيد آدم من حواء التي نزلت هنا، في جدّة؟

الأشـياء المثمرة هي الأشـياء المهاجرة، لا شـيء يبقى قاراً دون أن يحمل صـفة الماء الآسـن. ذلك ما يقوله المعلّم لمريديه بصيغٍ كثيرة، وكأنه يُعدّهم لتقبل رحيله المفاجئ الذي لا بد أن يأتي بطريقة لا يدركها أحد، وربما كان المعلم ذاته يجهل كيفيتها. أو كأن في مقابلته ما بين الجريان المستمر للنهر وبين سكون البحيرات الميّتة ما يحمل صبغة تبريرٍ يقدّمه لمريديه ليتصالحوا مع حركته الدائبة التي تذرع الرواق كقلقٍ أبدي لا يتوقف. لكنه اليوم، وعلى غير عادته، وصل رواقه قبل أن يصل أي من مريديه، أولئك الذين تسللوا على رؤوس أصابعهم حين وجدوا معلمهم كجبل في صحراء شاسعة الرعب والسكون، لا يتزحزح من مكانه. كان أبدياً وبصره شاخصٌ إلى الفراغ قبل أن يقطع أبديته بقيامة صوته الجهوري:

- "حين التفتَ الملك إلى زاوية بعيدة في حديقة قصره رأى المصلى نابتاً بين الأشجار، كان قد رآه كثيراً. عبرتْ عيناه على شكله البسيط والفوضوي في آن. مصلى تميل ألوانه الخارجية للتوحد بألوان الأشجار المحيطة، ويتخذ من شكله البعيد عن أي شكل هندسي هيئة قبّة تكاد تبتلع ما تحتها من بناء فيصبح مجرّد قبّة تجثو على الأرض.

كانت الشمس قد أشرقت منذ ساعة أو يزيد، عندما شاهد الملك أحد العاملين في تشذيب وسقاية حديقة القصر يخرج من المصلى مطرقاً ينظر إلى الأرضِ ويمشـــي في ســـكينة، بدا للملكِ أن الوقتَ متأخر جداً للخروج من صــلاة الفجر، كما أنه وقت مبكّر لبدء صــلاة الضـحى، فتسـاءل: ما معنى التقوى؟، وكيف ينقطع عابد مترهب في مصـــلاه كل هذا الوقت دون أن يغريه بالخروج مرأى الندى وهو ينحسر عن أعطاف وردة؟، أو أن يفكّر في شرب ضوء الشمس حين يتجمع في ساعات الصباح الأولى على أوراق الأشجار اللامعة النديّة؟ إنها التقوى، مطيّة الهاربين من جحيم الحياة إلى الله، وأحيانا، قدر الأنقيـاء حين يصـــطفيهم الرب لمجـاورتـه في الحيـاة الأخرى. لكن الملكَ ذهب بأفكاره إلى أبعد من ذلك حين تســاءل: إنني أشـــاهد الكثيرين ممن يتصــفون بالتقوى وقد تقلبت بهم الأحوال، فينقلب أتقـاهم إلى النقيض. إنهم في كثير من نمـاذجهم لا يســـعون لخير العالم بقدر ما يســعون للخلاص منه باعتزاله، فأتقاهم هو أكثرهم قدرة على جعل نفسه عاطلة عن الأماني في أبسـط صورها، وأقدرهم على المشـــي بســكينة ووقار هو أكثر الأتقياء مدافعة لروحه كي لا تنزل المنحدرات خوفاً من أن يبتلعها جُرف أو تنزلق بها صخرة.

ابتسـم الملك الذي ظل يتابع العامل وهو يبحر في ملكوته بسـكينة ويقطع ممرات الحديقة باتجاه الناحية الأخرى. وتذكر حكاية الطفل اليتيم الذي كان ينمو منبهراً بصــلاح أمه وتقواها، هذه التقوى التي دفعتها للاعتماد على ولدها حين شـبّ، فاسـتدعته لتطلب إليه أن يقطع الشجرة التي تتوسط فناء المنزل.

استنكرَ الشّاب ما تطلبه أمه فسألها عن السبب؟، لكن الأم ساقت مبرراً منطقياً لطلبها الغريب حين قالت بصوت يحفّه الخشوع: في بعض الأيام الربيعية أنام تحت ظلال جدران منزلنا، وكثيراً ما رأيتُ طائراً يحط على أحد أغصان هذه الشجرة وينظر إليّ!!

فما كان من الولد إلا أن قام بقطع الشجرة مُعجباً بتقوى أمه التي ترغب في خلوة بريئة بعيداً عن عيني طائرٍ فضولي. ولم يمض وقت طويل بعد هذه الحادثة حتى اكتشف الولد المفتون بتقوى أمه أن ثمّة علاقة آثمة تربط الأمّ بأحد رجال القرية. فهاله ما رأى، وإزاء عجزه عن فعل شيء، ونظراً لشعوره بامتنان عميق لها ولتربيتها له طوال هذه السنوات فرّ من المنزل، وخرج من القرية.

شاءت الأقدار أن يصل هذا الفتى إلى قرية هادئة وادعة، فاستقر فيها، وصار يختلف إلى مسجدها، حتى تناقل الناس خبراً حول وجود لص يسطو ليلاً على منازل أهالي القرية ويسرقها، فكان من الطبيعي أن تشير أصابع الاتهام إلى هذا الفتى الغريب الذي وفد حديثاً إلى قريتهم.

لكن الفتى نظر إلى وجوه الحاضرين في مسجد القرية عند اجتماعهم لأداء صلاة الجمعة، فلفت نظره شيخ بدت على وجهه سمات الوقار والسكينة، ليسأله بصوتٍ مسموع: أنتَ أيها الشيخ، إنني ألاحظ منذ أيام أنك تتوكأ على عصاً وضعتَ في طرفها قطعة من الإسفنج!، هلا أخبرتنا عن سرّ ذلك؟ فأجاب الشيخ بصوت مبحوح وواهن: أضعها في طرف عصاي كي لا تقع على دابة صغيرة من دواب

الأرض فتؤذيها. عندئذ توجه الفتى بخطابه إلى أهل القرية، وقال بثقة من جرّب الحياة: إن هذا الشـيخ هو السـارق! ولشـد ما كانت دهشـــة أهل القرية عندما أرادوا اختبار أكاذيب هذا الغريب ليجدوا أنه لا يقول إلا حقّاً، إذ وجدوا بعض ما فقدوا في منزل الشيخ.

نظر الملك إلى الأفق، ثم أعاد تثبيت ناظريه على المصـلى القابع في زاوية الحديقة وقال: إنني لا زلتُ أتساءل عن معنى التقوى".

كعادتي وصلتُ مبكراً، بقي من الوقت ما يكفي لأجرّب استحضار ما حدث هنا في اليومين الماضيين. لا أحب حضور الملتقيات يوم الافتتاح، الذين تراهم في اليوم الأول لا يمكن أن تراهم بعد ذلك، يحضرون في أوج تكدّس

الفلاشات والمشالح والابتسامات الغبية والكلمات الرسمية، ثم يختفون. يحضرون مع راعي الاحتفال ويذوبون عند خروجه بعد انتهاء المائدة الرسمية للسفسطة. أما اليوم الثاني فإنني لم أجد فيما نشرت الصحف عن فعالياته ما يثير اهتمامي، الأوراق المقدمة والشهادات كانت لأسماء مكررة، لا بد أنهم ألقوها في ملتقيات سابقة أو على التلفزيون أو نشروها في الصحف، يعيدونها بطرق مختلفة قليلاً، وبصيغ تدل على خبرتهم الطويلة في تسجيل حضورهم المستمر بغض النظر عن كون ما قالوه جديداً أم لا. كذلك اليوم الثالث لهذا الملتقى، لم يلفت نظري إلا الورقة التي ستُلقى أولاً، عنوانها

يهمني: "ما الشِعر؟". ذلك أن هذا العنوان يعيدني إلى الطالب الجامعي الممتلئ يقيناً لأنه يعرف أشياء كثيرة ومن ضمنها معرفته بالشعر.

"ما الشِعر؟"، سؤال ألقاه الأستاذ الجامعي على طلابه في سنتهم الجامعيّة الأولى. فلم يطل الصمت، لأن تعريف الأدب، والشِعر تحديداً، حاضر لا يغيب عن أذهان طلاب نابهين إذ تبرَّع أحدهم بتلاوة ما لقنوه: "هو الكلام الجميل، الصادر عن.."، ولم يقطع هذا الفيض إلا فرقعة مدوِّية لسؤالٍ آخر حاصر به الأستاذ طلابه: "الجميل؟!، هل يعني ذلك أن الشِعر هو الكلام المتبرّج؟!". فساد الصمتُ عندئذٍ، وتلاشى اليقين.
في تلك القاعة، رأيتُ السؤال يتصاعد كبخار حار ويتكور في زاويتها، وعلى مرّ سنوات الدراسة الجامعية، وعلى امتداد كتبها وقاعاتها وأساتذتها، وعلى الرغم من تحول السؤال إلى غيمة تظلّ روحي ببرودتها، إلا أنني لا أتذكر أن ماءً محسوساً هطلَ منها، كما لا أتذكر أن عطشي قد أطفأه تعريفٌ متّفقٌ عليه لهذا الكائن اللغوي الموسوم بـ"الشِعر". ليس ما يتعلق بالشعر فقط هو ما نثره ذلك الأستاذ في الريح، بل إنه مزّق يقينيات كثيرة، فكل يقينٍ اختبرته من جديد لأجد أنني كنتُ شديد البلاهة، هذه البلاهة التي تخليتُ عنها باجتراح الأسئلة، ومعها ذهب الاطمئنان إلى غير رجعة. كل تعريف ما هو إلا عملية ضاغطة بقسوة على المادة أو الشيء لمنحه هويته المشوهة، أليس القلقشندي هو من رأى في الكتابة صناعة روحانية بآلة جثمانية، وكأنه يدرك فداحة أن يحتوي الجثمان روحاً من شيمها التفلّت.
حين بدأ الناقد بقراءة ورقته كان عدد الحضور لم يتجاوز العشرين بعدُ، ولكنه تضاعف تقريباً مع نهاية النصف ساعة المخصصة له. جُلّ ما دار في ورقته لا يخرجِ عن شكوك بورخيس الشعرية، وأسبقية المعنى على جمالية

المفردات أو العكس، أسئلة كثيرة لم يكن أولها حول الاستعارات ولن يكون آخرها حول أشكال الكتابة الشعرية. وعلى الرغم أنني لم أستفد جديداً إلا أن الحديث عن الشعر وماهيته جعلني أشعر بالمتعة، لم أعلّق لكنني كنتُ أنصتُ لتعليقات بعض الحضور، والتي يسهل التنبؤ بمحتواها من هيئة صاحبها، فكلما بدت على المُتحدِّث مظاهر التدين كلما انحاز لبحور الخليل وموسيقاه، والعكس. أثناء التعقيب الأخير دخل الناشر لاهثاً كعادته، وجلس على أول كرسي صادفه، لم يطل به الجلوس حتى انتهت الجلسة الأولى. ذهبتُ إلى حيث يجلس وجلستُ بجواره مرحباً:

- مرحباً يوسف.
- أهلاً، توقعتُ أن أراك على الأقل منذ اليوم الثاني. بالأمس كانت أوراق العمل مميزة.
- كل شيء تفوح منه رائحة الورق والحبر سيكون لدى الناشر مميزاً بلا شكّ.

علقتُ ضاحكاً، لكنه تجاوز تعليقي ليدلي بملاحظته حول الملتقيات:

- على كل حال من الجيد أنك هنا، لترى بنفسك. لم يتغير وضعنا كثيراً منذ سنوات، نفس الوجوه من منظمين ومدعوين وحتى الحضور.

سكت، ثم التفت إليَّ مبتسماً:

- هل كان اسمها هنادي؟ أم مريم؟

وأردف سـؤاله باقتراح أن نخرج إلى بهو الفندق لشـرب القهوة إلى أن يحين موعدُ إلقاء الورقة الثانية.

بعد أن قام النجار اليماني بترميم العود، قرر العازف الرحيل إلى مدينة جدّة، كان قد زارها وهو في الحادية عشرة من عمره:

- **لصغر سنّي تم تسليمي إلى بريد مدينة الطائف، والذي حملني كطرد إلى قمة جبل الهدى، ثم نزلنا إلى سفح الجبل مشياً ليتسلمني بريد مكة وينقلني إلى داخل المدينة حيث تم استلامي من قِبل ربّ العائلة التي سأعمل لديها.**
- **ثم انتقلت إلى مدينة جدّة؟**
- **بقيتُ ثلاثة أيام في مكة لدى العائلة التي أعمل لديها، ثم ذهبتْ الأم و ابنتها إلى جدة. كانت ترغب في البقاء هناك لدى ولدها لأسبوع، واصطحبتني معها.**

يصمت وكأنه يستعيد تاريخاً سحيقاً، ثم يضيف:

- **في أول يوم وصلنا إلى جدة لم أفعل شيئاً سوى التعرف على المنزل الذي سأقيم فيه لأسبوع، ثم طلب مني ابن هذه السيدة أن أنام في الصالة، وكنتُ أعرف المذياع، لكنها المرة الأولى التي أرى الجهاز الضخم الذي بجواره. لم أهتم و اقتربتُ من مكان وجود المذياع ووضعتُ فراشي لأنام.**
- **وكيف كانت جدة؟**
- **لم أرها، لأن لحكايتي هذه تتمة.**

يعدّل جلسته، ويتم حكايته:

- **جافاني النوم تلك الليلة، من الصعب أن أنام وأم كلثوم تُغنّي. معها رحتُ أدندن بعفوية وأرددُ كلمات الأغنية بقدرما ألتقطه منها ساهراً مع الصوت. تقدم الليل و أنا أمضي معه، حتى غلبني النوم بعد نهاية الحفلة.**

يبتسم، ثم يضيف:

- **مع الفجراستيقظت على صراخ صاحب الدار، كنتُ أسمع صوته مختلطاً بصوت أم كلثوم، وبصوتي الذي لا أنكره! كنتُ أشارك في تسجيل صوتي دون أن أدري. لم أكن أعرف أن ذلك الجهازالضخم الذي يجاورالمذياع جهازتسجيل لم أعطه فرصة تسجيل حفلة أم كلثوم دون أن أطرزها بغنائي.**

ضحكتُ، لكنه نظربعيداً واستمر:

- **وهكذا، كنتُ أغادرجدة مطروداً من عملي الجديد، حتى أني لم أر من هذه المدينة سوى بو اباتها، وجدران حارة اليمن. كانت تجربة مثيرة، وكنتُ على ثقة و أنا أغادرجدة أنني سأعود إليها ذات يوم.**

- أهي هنادي أم مريم؟

هكذا سأل الناشرُ، وأدنى كوب قهوته من شفتيه ليعيده إلى الطاولة دون أن يشرب:

- " كلما شاهد مجنوناً أو هامشياً سأل نفسه: من منّا على ثقة أن هذا الشخص لن يكون المُخلِّص"!

قال ذلك بصوتٍ مسموعٍ، ثم رفع كوبه من جديد، ولم يُضف شيئاً.

كنّا نجلس إلى طاولة ببهو الفندق، طلبنا قهوتنا في انتظار الجلسة النقدية الثانية. ثم طلبتُ زجاجة ماء وكأس فارغة إلا من قِطع الثلج، كنتُ بحاجة إلى وضع قطعةً ثلج في فمي لأستحضر ما كتبتُه حول مريم، كم شعرتُ بالفزع لمجرد نسيان ما إذا كانت موجودةً داخل كتابي أم لا؟ حين أفكِّر في العادية المفرطة لها أتعجَّبُ مما هي عليه، أن تكون بسيطاً وعادياً إلى درجة أن تكون مختلفاً. وسط عالمٍ تافهٍ ومتأنقٍ؛ كانت تحمل اسمين، وتعيش في مدينتين، ولا تنحاز إلى شيء سوى قطع الثلج التي تأكلها بشراهة. والثلجُ هو الشيء الوحيد الذي كان يعني إمكانية أن تمثِّل مريم ظاهرةً أدبية، فقطعة الثلج التي تشغل لسانها ليست أكثر من حماية لها من جنون اللغة، وعبثية المجاز.

قلتُ ليوسف محاولاً تبرير ما لم أكن على ثقة أنني قد كتبتُه:

- اسمع، فكرتُ أن أكتب تاريخاً ما في تلك المخطوطة التي بين يديك. إن كتابة تاريخ الأشياء والأحداث والبشر ليس بسبب حتمية الاستفادة منها كما يروّج المؤرخون، بل لاستبقائها لا أكثر. لا شيء يتكرر، ويثبت تاريخ البشر أنهم لا يمكن أن يتعلموا من التاريخ شيئاً.

ردّ الناشر:

- هذا إذا آمنّا أن ما بين أيدينا هو التاريخ فعلاً.

قلتُ:

- كانت مجرد مقاربة، التاريخ لا يهمني أبداً، إنه عملية انتقاء يقوم بها من يدونه في ضوء ما يريد أن يوصله إلينا، ونحن نضلل من يلوننا، وهكذا.

وأضفتُ:

- عنيتُ أن ما كتبتُه لا يحمل صيغة تفسيرية لأي شيء أو حدث. إن سرد وتفسير الأشياء والأحداث من خلال اللغة يفسدها تماماً.

كان ينظرُ إليَّ منصتاً وأنا أرفع رأسي إلى الأعلى بحثاً عن سماء تعينني على شرح فكرتي، لكن بصري انكسر على سقف وجدران البهو فاستنجدتُ بخداع اللغة من جديد:

- الحقّ يا صديقي أن منظر السماء لحظة الغروب وهي تسيل بلون الدّم هو الحدث الأقرب لتفسير معنى أن ننحاز دائماً إلى ترتيب الأشياء بدلَ فضيلة الانحياز إلى مراكمتها لتنتج شيئاً جديداً. في كل مرّة تذوب السماء على الأرض تولدُ سماء جديدة بفكرة موجزة عن العالم القديم الذي يئن تحتها.

كنتُ أفكِّر أن تصنيف وترتيب الأشياء لا يعني إلا أن يضطر الإنسان لإصدار حكمه عليها، لهذا فضّلتُ ألا أتحدث أكثر حول ما إذا كان اسمها هنادي أم مريم. في نهاية الأمر سأجد أن الأسماء كالأشياء والأحداث لأنها غير قابلة للبرمجة إلا في حدود إرادة من يتعامل معها، فتفسيراته لها، وليس حقيقة ما هي عليه، تأتي لتلبي حاجةً لديه.

في هذا اليوم، تأخر المعلمُ في الجلوس إلى مريديه، كانوا قد فكروا في سبب تأخره النادر الحدوث، وراودتهم أنفسهم بفكرة الانصراف التي أعلنها أحدهم ووافقه الجميع لكن أحداً لم ينفّذها، هذه الفكرة الأشبه بحكم صدر مع إيقاف التنفيذ لم تصرفها عن أذهانهم إلا رؤية معلمهم قادماً من بعيد، حين جلس بينهم كانت عيناه جاحظتين وبلا مقدماتٍ بدأ أماليه:

- "كان على الملك ألا يفعل شيئاً هذا اليوم سوى أن يغرق في أفكاره، فبدا مخلصاً لهذه الفكرة وهادئاً إزاء ما منحته لجسده من كسل ودعة، ولكنه كان يتورط في مشكلات العقل، هذه المشكلات التي تعني اللّذة في طور آخر، وها هو يختبر هذا الطّور لأوّل مرّة.

حين أمر بإعداد فطوره كان يجلس في مجلسه الخاص وحيداً، ما دعاه لتأمل الأوراق التي ألقاها قبل أيام إلى طاولة صغيرة أمام أحد المقاعد، كانت مضمومة إلى بعضها البعض بمشابك دالة على أنها ليست أكثر من أفكار متناثرة وبدائية، وأنها مجرد فكرة لمشروع ما، لكنه يعلم جيداً ما تحتويه من هرطقة لا يجد ما يصفها به.

- "أنظمة ومؤسسات الدولة الإسلامية"!

تمتم الملك:

- هذا ما مللتُ سماعه، حتى صرتُ أميل للكفر بمفكرينا في هذا الوطن الأبله، فأي دولة إسلامية؟ وأي نظم إسلامية؟ وأي بلاهة هذه؟

صمتَ قبل أن يضيف:

- لازال شعبي يميل لقراءة القرآن بأعين موتاه، ويميل لقراءة محمد بقراءة أثر ما تركه هذا النبي وليس بما جاء به فعلاً. لو فهموا، الآن، ما جاء به هذا الأمي العظيم لعلموا أنهم قضوا قروناً مخدّرين في وهم الدولة الإسلامية.

استأذن في هذه اللحظة مستشار الملك، فأذن له. وما إن سلّم حتى بادره الملك قائلاً:

- اليوم هو يوم خروجي الأول للحديث إلى شعبي، أخبرني يا مستشاري العزيز عن "الدولة الإسلامية".

أجاب مستشار الملك:

- حفظك الله أيها الملك، إنها الدولة التي تخضـــع لتعاليم للقرآن والسنة في جميع أمورها.

صمت الملك، وأبحر عميقا في أفكاره.

وإزاء هذا الصمت لم يجد المستشـار بُدّاً من اسـتكمال ما بدأه من تنظير:

- لقد كان محمد بن عبدالله، عليه أفضـــل الصـــلاة وأتم التســـليم، يحمل مشـــروع الدولة منذ أول يوم تنزل عليه الوحي فيه. يروي تاجر عربي أنه زار أبا طالب في مكة، فرأى رجلاً يخرج من الدار ثم يصـــلي صـــلاة لا يفهمها الأعرابي، ثم تبع هذا الرجل امرأة وصبي وأخذوا يصلون مثل صلاته. قال الأعرابي: من هذا يا أبا طالب؟ فأجابه أبو طالب: هذا ابن أخي وهذه زوجُهُ والصبي ابني. ثم أضـاف أبو طالب: إن ابن أخي هذا يقول سـأذهب بعرشـي كسـرى وقيصـر، وما أعلم أحداً على دينه غير زوجته وابني.

حين التفت المستشـار إلى الملك رأى عينيه تذرفان، فلزم الصمت. لكن ما إن هدأت نفس الملك حتى عقّب قائلاً:

- ما كان هذا الرجل العظيم ســـوى محمد، ومعه خديجة وعلي عليهما رضا من الله أن كانا أول المسلمين.

وران الصـــمت مرّة أخرى، حتى لكأن الكون قد فقد معنى الحياة ودخـل في فنـاء وعتمـه. لكن الملـك هـبّ واقفـاً، وبـدأ يتحرّك في مجلسه على غير هدى:

- إنكم يا مسـتشـاري العزيز تؤولون الأمور على غير حقيقتها، وتبيعون وهم الدولة الإســلامية بمثل هذا الموقف العظيم من نبي المحبة والســلام. لكأنك يا مســـتشـــاري تريد أن توهمني بما توهم به، أنت ونظراؤك، العامة، فأنتم لا تدرون ما الفرق بين النبوءة وبين بناء الدولة. هذا الموقف أشـــبه بموقف الرسـول العظيم ذاته بين أصحابه في حادثة الخندق حين أخذ يبشـرهم بسـقوط عرشـيّ كسـرى وقيصـر. حديثك عن الأعرابي وأبي طالب دال على النبوءة في زمن لم يكن لهذا النبي إلا تـابعين اثنين فقط، وحديثي عن الخندق دال على نبوءة في زمن العسـف الذي وقع على رجال صـدّقوا وآمنوا. الموقفـان جـاءا في أســوأ الظروف ولا يـدلان على أكثر من نبوءة يســـتطيع التلفظ بها كائناً من كان. لكن العبقرية لم تكن في النبوءة التي بشّـرتْ قلّة مسـتضـعفه بمجد أشـبه بالمستحيل. لا يرى في هذه النبوءة عبقرية إلا قاصر فهم.

توقف الملك عن الحركة وقد علت نبرة صــوته، وأخذ ينظر إلى فراغ لا يراه إلا هو:

- إنها عبقرية القرشــي التي دفنتموها تحت صــخور التنطع بحكمتكم البلهاء. ليست نبوءة هدم عرشيّ كسرى وقيصر هي الدال على بناء الدولة الإســلامية. إن العبقرية أن يســتطيع هذا النبي خلق العمق الإيماني في المحيطين به، بدءاً من خديجة وعلي، وانتهاء برجال يهدهم الجوع وينهش قلوبهم الخوفُ من أعراب تحزبوا ويهود نقضــوا العهد. كل هذا لم يدفعهم للشـك في نبوءة وراثة كسـرى وقيصـر. فما النبوءة بأكثر أهمية من خلق كل هذا اليقين القادر على وراثة جميع أمم الدنيا من أقصى الأرضِ إلى أقصاها.

ابتسـم الملك فجأة وجلس. كانت الريح العاصـف التي أثار زوابعها قد خمدت، وكان قد شعر بانتصار ما. لكنه لم يكن متأكداً من ذلك، فأتبع هذه الفكرة بفكرة أخرى حتى لا يدع لفك المســتشــار، الفاغر عن دهشة، فرصةً ليعود إلى سابق اطمئنانه:

- حين لحق الرسول بالرفيق الأعلى لم يورّث غير قرآن وسنّة، ولم يترك لنا نظاماً إســلامياً ولم يكن قد أسّــس دولة إســلامية، كما أن المدينة لم تكن عاصــمة خلافة أو غيره، وكانت فقيرة جدّاً إلى المؤسسات. أتدري لماذا؟

لم ينتظر الملك إجابة عن سؤاله، فأكمل:

- لأن محمداً لم يُبعث لبناء الدولة، لكنه جاء لبناء الفرد. لقد جاء بكتاب عظيم قرأه الصـحابة وفهموا منه مغزاه العميق. كانوا يتلون: "إن إبراهيم كان أمّة"، فصـار كل فرد منهم أمّة.

وورث الصحابة عن رسولهم الكريم تحذيره: "لا يكن أحدكم إمّعة"، فنأوا بأنفسهم عن أن يكونوا مجرد أتباع يسوقهم حاكم أو يوظفهم شيخ مترهب لخدمة أغراضه. لقد بنا محمدٌ الفردَ، وترك لهذا الفرد فرصة أن يبني الدولة ويؤسس النظم ويقترح المؤسسات المدنية.

صمت الملك للحظة، ثم أردف:

- إنه السرّ الكامن في الفرد لا أكثر. ذلك أن وصايا محمدٍ تعطي الأفراد الطمأنينة واليقين وفكرة التوحيد، وتعطي كل فرد منهم سُلّم القيم الإنسانية العليا، ثم يبدع هؤلاء الأفراد على اختلاف بيئاتهم نظمهم العامة التي تخضع لتصور إنساني شامل يعلي من شأن كرامة الإنسان، ويحفظ له حقه في الحياة الكريمة.

جلس الملك بمحاذاة المستشار ووضع يده على كتفه:

- أتدري يا مستشاري العزيز أن الصحابة كانوا يتقاتلون في معركة الجمل وما تلاها من معارك نشبت بينهم لتباين في الآراء والتوجهات في خلافة علي رضي الله عنه. يتسامرون ليلاً وهم على خلاف كبير، حتى إذا بدأ النهار التالي في إرسال نُذر ضوئه انطلق كل صحابي منهم إلى معسكره وحمل السيف دفاعاً عن "فكرته". وأنتم اليوم تدعون الناس للإتباع المطلق وتنهون عن الابتداع، وتحذرون الناس من مغبّة

التفكير، وتدعون بالويل والثبور لكل من اســتخدم عقله لأنكم تحرصون على تسكين هذا العقل. عملتم، أيها العزيز، ضــد عمل القرآن حين دعا المســلم للتفكر والتدبر والجدل بالحسنى.

ثم أضاف:

- لقد وصلنا إلى مشارق الأرض ومغاربها ونحن فرق مختلفة تتجادل بالمنطق وتتحاور حول كل مبدأ فتضيف إليه وتبين غاياته، وكنا في أفضــل حالاتنا ونحن نولي لفلاســفتنا انتباهاً، ونعطي لأفكارهم قيمة.

حين اطمأن المســتشــار لهدأة الملك، وبعد مســاحة مناســبة من الصمتِ اتخذ فيها المستشار هيئة المتأثر بما يسمع، بدأ في تمرير اعتراض في صــيغة اســتفســار مريد يقعي بأدب بين يدي أســتاذه الحكيم:

- قلتم، حفظكم الله وثبّتَ ملككم، إن محمداً ما ترك لنا غير قرآن وسـنّة. وفي ما ضـمه الكتاب العظيم والسـنة المطهّرة من معاملات مالية ومواريث، وكذا شــأن الحدود، ما نعتبره نحن الفقهاء أنظمة اجتماعية تؤســس لمعنى الدولة الإسلامية. فكيف نوفّق بين هذه الفكرة، وما أوردتم آنفا؟

ودون عناء تفكير، أجاب الملك:

- إنكم تقولون عن غاية الحدود ما يدفعها تجاه الفرد، فإن قلنا إن غاية الحدود حفظ الضــرورات الخمس فإننا نتحدث

عن الفرد، أما المعاملات المالية والمواريث فهي ليست أكثر من شِرعة ربانية كاملة تحفظ للفرد حقه في مال مورِّثه. لكن كل هذا لا يعني المؤسسات والأنظمة التي تسيّر الشأن العام أيها المستشار.

وهجس الملك بالفكرة العامة التي تلبسته لسنوات طويلة:

- مبدأ "الواحد الكبير" جل شأنه وتقدست أسماؤه.

ثم نظر إلى المستشار الذي بدت عليه علامات الدهشة تحت وطأة المصطلح الجديد، فأكمل الملك:

- إن القرآن كتاب توحيد وبيان لعظمة الخالق، ثم هو دعوة للتفكير. إن المبدأ الأساس هو مبدأ الواحد فلا يذهب العقل لسبر المطلق فيسكن التيه ويضل طريق الإيمان والعلم على حد سواء، لكي لا يكَلَّ عن عمارة الأرض. ومبدأ الكبير هو إسناد كل شيء للخالق، القادر على فعل ما يعجز العقل عن تصوره، الفارض لنواميس الكون وقوانينه بقدرته التي لا تُحدّ.

وما إن انتهى الملك من جملته حتى استأذن عليه من خدم قصره من يخبره بأن الفطور قد أُعدّ. حينئذ أراد الملك أن يلخّص كل ما دار من حوار مع مستشاره في عبارة واحدة، فقال:

- أليس محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام هو القائل: نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي

الموتى، فكيف لم يدرك أحد منكم أيها الحفّاظ هذا الفضل؟ وهل أغراكم إتباع الناس لكم بتكبد عناء التفكير عنهم؟ لقد وجدتم ضـالتكم في شـعب بلغ به الوهن حدّ أن يبحث في أدق أمور حياته عن إجابات وفتاوى جاهزة يطمئن إليها وربما احتال على بعض مسـلّماتها كي يجعل من قائلها جداراً يعلّق عليه آثامه ويمضي.

ثم قام من مجلسه قائلاً لمستشاره المصعوق:

- لنقم إلى فطورنا أيها العزيز".

أصـرّت مريم على أن أزورها وأجلس معها لدقائق في بيت أختها، لتتعرف عليّ أكثر. كانت قد أعدّتْ لهذا اللقاء هي وابنة خالتها لطيفة وأختها:

- سـيذهب زوج أختي إلى المدينة المنورة بعد المغرب، وقد أخبرتُ أختي عنك. هي لا تُمانع في مجيئك.

وبذات الهدوء الذي صعدتُ به سلم بنايتهم في المرة الأولى كنتُ أصعده هذه المرّة بعد أن تأكدتُ أن زوج أختها قد رحل. حين وصـلتُ إلى الباب الموارب قامتْ بسـحبه لتدخلني، كانت تلبس بلوزة زرقاء شـفافة وتنورة قصـيرة سوداء. أتذكر أنني قلتُ لها إن خمسين ألف امرأة يتم اغتصابهن سنوياً في جنوب إفريقيا لأنهن يلبسـن تنانير قصـيرة، ثم طمأنتها أن الأمر لا يحتاج في شـرقنا إلى تنورة قصـيرة بل إن جلباباً أسـود طويلاً لا يمنع من حدوث شـيء كهذا. ضـحكت وعانقتني، ثم تقدمتني لتدلني على المجلس. أجلسـتني وانصرفت، لتعود حاملةً حذائي الذي قامتْ بوضعه تحت إحدى الطاولات المجاورة لباب المجلس، وانصرفت من جديد لتعود مع ابنة خالتها لطيفة.

لاحظتُ طولها قياســاً إلى ابنة خالتها الثلاثينية التي لم تُطل الجلوس، ثم خرجت. التصـقتْ مريم بي بعد أن تأكدتْ من إغلاق الباب، شـعرتُ للحظة أن أنفاسـها تعبر قلبي، تلاشـى صـوتُ رفيقاتها اللواتي كنّ في الغرفة المجاورة عندما همستْ:

- لم أتوقع أن تغامر من أجلي.

الحق أنني لم أكن أعلم من منا كان يغامر في تلك الليلة، أنا أم هي، أم أن أختها هي من تضع زواجها في مهب الريح:

- كنتُ واثقاً من أنك جميلة، لكن لم أكن أدري أنك جميلة إلى هذا الحدّ.

ابتسمت وهي تقول:

- لم ترني جيداً تلك الليلة؟
- رأيتُك بوضـوح، لكنني لم أتذكر بعد أن غادرتُ إلا شـعرك الطويل، كان يمتدّ من منزلك إلى يوم ولادتي.

اقتربتْ منّي أكثر وقبّلتني، نعم، بلا مقدماتٍ وبلا عواصـف تمنع شـفتيها من أن ترسـو على شـاطئ شـفتيّ المطبقتين، كانت قبلتها حارقة وطويلة إلى درجة أنني احتضـنتها وأنا أحاول الاحتماء بصـدرها من هذا الجنون. كانت المرّة الأولى التي تُقبلني فيها فتاة. لا، مريم لم تكن فتاة، إنها أشـبه بأسـطورة فتاة في قصـيدة رعوية، تماماً كجيني التي كانت تتخلّق في خيال الشـاعر الإنكليزي جيمس هنت:

"عندما تقابلنا قبلتني جيني،

قافزة من المقعد الذي كانت جالسةً عليهِ؛
الزمن، أيها اللص، يا من تحب إضافة
الأشياء الحلوة إلى قائمتك، أضف تلك كذلك!
قل أنا مرهق، قل أنا منهك، قل أنا حزين،
قل بأن الصحة والثروة كم ضلتا طريقهما عني،
قل بأن العمر يركض بي نحو المشيب،
لكن أضف،
بأن جيني قد قبلتني".

كنتُ أغيب عن العالم إلا عن ارتعاش ورطوبة شـفتيها، وكان قلبي قد توقف طوال اشـتعال هذه القبلة الأبدية التي لم يغادر طعمها فمي منذ تلك الليلة إلى هذه اللحظة. لا أدري إن كانت قد قبلتني من جديد أم أن قبلتها الوحيدة تلك هي ما تمدد ليشـغل زمناً كان خارج الزمن قبل أن يُطرق الباب. حين فتحتْ الباب كانت لطيفة تقف وفي يدها كأسين من عصير البرتقال، حاولتْ بشغب أن تدخل لكن مريم تناولت العصير وشكرتها، ثم أغلقتْ الباب.

وضعت البرتقال على الطاولة، وتنهدتْ:

- مسكينة لطيفة، حظها سيء.
- لماذا؟

هذا ما قلته لأبدو متعاطفاً معها، والحق أنني بالفعل أتعاطف مع لطيفة لأنها فتاة "إشارات مورس" كما كنتُ ومريم نسميها.

- تزوجتْ ابن عمها، لكن

سكتت، وبدا أنها تختار الكلمات المناسبة لتكمل:

- في أول ليلة اكتشف زوجها أنها غير عذراء!

لم أعلق، لتواصل حديثها:

لم ينزل منها قطرة دم واحدة، تعرضتْ للضرب من زوجها ومن أبيها الذي صعقه الأمر.

سألتُ:

- هل ذهب بها أحد إلى الطبيب ليتأكد من أنها بالفعل ليستْ عذراء؟
- زوجها لم يبال بكلام الطبيب وطلقها بعد أيام قليلة من الزواج، ونتيجة لهذه الحادثة وما لحقها من ضرب مبرح أصيبت لطيفة بمرض نفسي، كانت عائلتها كلها محطمة، أما هي فأصبحتْ تحمل العار، وتتمني الموت.

ثم أضافت:

- أختي هي صديقتها المقربة، تقول إنّ لطيفة كانت متدينة جداً قبل الزواج، وتحفظ ما يزيد عن عشرة أجزاء من القرآن. لكنها الآن على ما تراه من حال.

قاطعتها قائلاً:

- لا أدري، فقط أراها لطيفة مثل اسمها تماماً، وأحبها لأنها عرفتني إليك.

قالتْ مريم:

- منذ سنوات وهي لا تعبّر إلا عن نقمتها على هذا المجتمع واستهتارها به، وبالمناسبة هي مطلقة منذ أكثر من عشر سنوات وتعيش مع

أخيها المتزوج. لقد صارتْ لا تهتم بـــ مع من تخرج، ولا بما سيوصلها إليه هذا الطريق.

حينها فكرتُ أن الأخلاق هي أداة القتل لأرواحنا اللطيفة، إنها أبجدية من يصنعون شقاءهم بأيديهم. أفكر أنني كنتُ مهتماً بهذا الجانب أكثر مما يجب. كل رفيقات مريم استمعتُ إلى قصصهن التي لا تختلف عن قصة لطيفة إلا في بعض تفاصيلها. فتياتٌ حالمات وبريئات، جميعهن يعتقدن أن الحياة طريق مستقيمة واحدة منذ الولادة وحتى الممات، إلى أن يتزوجن بطرقٌ غبية ومتشابهة، عندها يدركن أن الدائرة هي الطريق الأصلح لإكمال حياتهن بلا مشاكل. نعم، الدائرة هي أكثر الطرق أماناً بالنسبة للفتيات في السعودية، حين يكتشفن أنهن مجرد ملكية تتناقلها الأيدي، وأن أدق ما يخصهن كفتيات ليس أكثر من جواز مرور بين عالمين، عالم ريبة وظنون ما قبل الزواج، وعالم اليقين المطلق بعد الزواج، هذا اليقين الذي لا يحمل إلا خيارين اثنين، إما أن تكون شريفة أو أن تكون عاهراً، بغض النظر عما كانت تفعله قبل زواجها، أو ما ستفعله بعده.

قلتُ معلقاً على عبارتها الأخيرة:

- إذن صارتْ تواعد الشباب وتخرج معهم؟

ضحكتْ بأسى وأجابتْ:

- ما الغريب في ذلك، لطيفة ليستْ أكثر من عاهر في نظر كل من يحيط بها، حتى لو نزل عليها الوحي لن تكون إلا عاهراً. ولأنها لا تتوقع أن يغفر لها أحد خطيئةً لم تقترفها أبداً فإن الأمر وصل بها إلى درجة أنها قامتْ بوضع قوائم لأصدقائها من الشباب، قوائم

قصـــيرة بالطبع. منها قائمة لذوي المال، وأخرى للوســـيمين، وثالثة للظرفاء، وهكذا.

تساءلت بدهشة:

- كل هؤلاء أصدقاء لطيفة؟
- لا، بعضـهم أصـدقاؤها، أما البقية فوضـعتهم في القائمة عن طريق صـــديقـاتهـا. ألا تـدري أن بعض الفتيـات يتبـادلن أرقـام هواتف الشباب ويقمن بتصنيفهم حسب ما يتمتعون به من صفات. ويصل الأمر إلى درجة أنهن يبعن مثل هذه القوائم إلى بعض المهتمات ممن هن خارج دائرتهن.

ضحكتُ وسألتها:

- في أي القوائم ستضعينني؟، وهل ستمنحين لطيفة حق الاستفادة من رقم هاتفي؟

ردتْ وهي تمشي باتجاه جهاز التسجيل:

- لا، أنت خاص.

وقبل أن أسأل عن معنى "خاص"، أضافتْ:

- يعني لي وحدي.

وأدارت جهاز التسجيل، كان صوت محمد عبده يتدفق حاملاً أنشودة المطر إلى الفضاء الذي كان مُشبعاً بعطر أنفاسها اللاهثة وهي تتمايل مع موسيقى عميقة كزخَّات المطر.

امتدتْ الدقائق التي كانت مريم قد قررتها للقائنا إلى أكثر من ثلاث ســاعات. علمتُ منها، فيما بعد، أن زوج أختها عاد لأمر ما إلى المنزل بعد دخولي إليه بأقل من نصف ساعة، وأن أختها أخبرته أن هنادي تستقبل صديقاتها في المجلس. عندها فهمتُ سرّ وضع حذائي تحت الطاولة، كما أدركتُ مدى ما كنا نقوم به، أنا ومريم وأختها، من مغامرة.

- لم يبق لي شيء في مدينة الطائف، حملتُ عودي ومضيت. كان لا بد من قطع الطريق ماشياً من جبل البازم عبر وادي وج متجهاً نحو حارة السليمانية، ومن جهة مسجد ابن عباس دخلتُ البلد، ابتعتُ فطوراً بسيطاً، واتجهتُ نحو خان الملطاني حيثُ شربتُ الماء وأدرتُ ظهري نحو الطائف لأتأملها للمرة الأخيرة. بقيتُ هناك لساعة أو أكثر، كأنما أردتُ اختصار خطواتي طيلة أربع سنوات من ذمار إلى مدينة الأساطير التي قيل إنها أخذت اسمها من الطفو على وجه طوفان نوح، أو أنها أرض بالشام، أو أرض أصحاب الصريم من أرض اليمن اقتلعها جبريل وطاف بها حول البيت العتيق قبل أن يضعها في السفح الشرقي لسراة الحجاز. عندما توجهتُ نحو باب الريع لأعبر منه إلى ضاحية قروى راودتني نفسي

بإلقاء نظرة أخرى لكنني لم أتوقف ولم ألتفت، حتى وصلتُ قرية الآبار. هناك، في ظل بناء قديم يشرف على بئر عجلان جلستُ لتناول فطوري. ثم انتظرتُ سيارة تقلني إلى الهدا. هذه المرّة لن أحتاج إلى سيارة بريد تنقلني كما حدث في المرة الأولى. كنتُ راشداً في الرابعة عشر من عمره، حاملاً عوده وبدون أي متاعٍ متجهاً صوب الغرب. أقلتني سيارة لم يزد ركابها عن ثلاثة إضافة إليَّ وإلى سائقها. عبرنا وادي مَحرم باتجاه الهدا، حيث وقف السائق على قمة جبل الهدا لنترجّل سالكين طريقاً متعرجاً باتجاه سفح الجبل، كنا نقطع طريق "كَرَا" نزولاً إلى مكة، كانت مسافته تقارب ألفين وسبعمائة متر في طريق متعرّج مأهول بقردة البابون ونبات العرعر لا غير. يسمي أهل الطائف هذا الطريق بدرب الحجّاج، وهو شبه مرصوف، ويعيدون بناءه إلى عهد الدولة العباسية، ويخدم الراجلة كما يخدم قوافل الجمال التي تصعده باتجاه الهدا وصولاً إلى الطائف، أو نزولاً نحو المَعْسَل باتجاه مكة. حين انتصفت الجبل التفتّ لأرى ما فسر لي في ذلك اليوم ارتباط مدينة الطائف بالعماليق ثم بقوم عاد، لا بد أن مدينة شاهقة كهذه لا يصل إليها إلا رجال شاهقون. حين وصلتُ ورفاقي الثلاثة إلى المَعْسَل كان النهار قد انتصف. جلسنا للغداء، وتزودنا بالماء من عين المعسل الباردة، ثم ركبنا سيارة يسميها الطائفيون بسيارة الأبلكاش، كانت مزودة بجوانب خشبية هي سر تسميتها بهذا الاسم، وكانت تنقل الأفراد والبضائع على السواء. انطلقنا مباشرة بعد غدائنا، قيل لنا أننا كل ما يكفي لإكمال حمولة هذه

السـيارة. حدثني بعض رفاقنا الجدد في الطريق أنهم منذ طلوع الشـمس ينتظرون وصـول المزيد من البضـائع والأفراد لإكمال حمولتهم. نمتُ رغم صـعوبة النوم لراكب يجلس مُنكمشـاً بين الأكياس المكدسـة في خلفية سـيارة تسـلك طريقاً وعرة. لم أستيقظ إلا بعد صلاة العشاء التي جمعناها مع صلاة المغرب في منطقة تقع بين مدينتي مكة وجدة وتُسمى المَرْشَديَة، ثم تعشينا وارتاح السـائق قبل أن نواصـل. كلفتني رحلتي من الطائف إلى جدة ثلاثة ريالات وثمانية عشـرة سـاعة هي ما احتجته من وقت لحملي من باب الغرفة التي سـكنتُها في جبل البازم حتى باب مكة الذي من خلاله ندخل إلى حارة المظلوم بجدة، حين ترجلتُ من السيارة كنتُ لا أكاد أرى طريقي. توجهتُ مباشرة إلى مقهى شعبي يتوسط المسافة بين سوق الجامع وبين مسجد الشافعي، ونمتُ فيه. حين استيقظت صباحاً كان الناس يغادرون المسجد بعد صلاة الفجر، تأكدتُ من أن عودي في مأمن من أعين الفضوليين، واعتدلتُ في مقعدي المصـنوع من سـعف النخيل والخيزران لأسـتوعب المكان. في الليلة الفائتة كنتُ قد نمتُ دون أن أتبادل الحديث مع عامل المقهى الذي تركني أختار الكرسي الذي سأنام عليه وأعطاني غطاء وعاد إلى فراشـه في زاوية المقهى. تناولت الفطور في المقهى وشربت الشـاي، ثم سألت العامل اليماني عن ثمن النوم لليلة على هذا الكرسـي، ودون وجل وجدتني أناوله عودي ومائتي ريال هي كل ما بقي معي من ثمن محتويات دكان

الطائف. أخبرته أن يحتفظ لي بها، بعد أن يخصم كل يوم ريالاً ثمن النوم في مقهاه وريالين كمصروف شخصي لي. خرجتُ بعد ذلك باحثاً عن المنزل الذي نمتُ فيه لليلة واحدة بحارة اليمن، لكنني لم أستدل عليه. فقد وصلته تحت جنح الظلام وغادرته مطروداً قبل أن ينبلج ضوء الصباح. لكنني، وفيما يقارب الشهر، جبتُ الرويس وحارة الشام وحارة اليمن والبلد وحارة البحر والكرنتينة. كنتُ في كل خطوة أبحث عن آثار أجدادي القضاعيين الذي تركوا مأرب ورحلوا نحو جدة بعد انهيار السدّ.

حين انتهى ناقد آخر من إلقاء ورقته الثانية صعدتُ مع الناشر إلى غرفته في الدور الأول:

- هذا امتياز لا يحصل عليه إلا الناشرون، أعني أن تكون من سكان ذات المدينة التي يعقدون فيها الملتقى وأن تحصل على غرفة في الفندق.
- صناعة النشر تنطوي على اللؤم بطريقة ما.

علّق وهو يفتح الباب. حين دخلنا جلست في مواجهة التلفزيون، كانت الطاولة التي إلى جواري ترزح تحت ثقل ما لذ وطاب؛ ثلاث قوارير تكيلا لم يمسسها بشر، وقارورة شيفاز بكر، وربع قارورة بلاك ليبل. وقارورة بلاستيكية تحتوي فيما يزيد عن ربعها على شراب أحمر اللون، لا بد أنه واين، سألت:

- يوسف، هذا نبيذ؟
- ومستورد وربك.

- ولماذا تضعه في زجاجة بلاستيكية؟
- مرّ بي أحد ضيوف الملتقى وأخذ القارورة، هذا ما استطعتُ استعادته منه تحسباً لمجيئك.

فتحت الثلاجة ووضعت قطعة ثلج في فمي، ثم أخذتُ كأساً وملأتها بالنبيذ. حين تذوقته أدركتُ أنه بالفعل ليس نبيذاً محلياً:

- مذاقه رائع، لكنه ليس إيطالياً.

ضحك الناشر، وجاء ليجلس بجواري:

- وما أدراك؟
- قد يكون مصنوعاً في أي بلد، أو قد تكون صناعته سماوية أو حتى ما تحت أرضية، لكنه ليس إيطاليا.

قام وصب لنفسه كأساً من البلاك، ثم سأل وهو يفتح الثلاجة باحثاً عن قطع الثلج:

- لماذا لا تؤلف كتاباً عن الشراب؛ تاريخه وأنواعه وأدبيات تناوله. دعنا نستفد من خبراتك، لأن المكتبة العربية تخلو من فنٍ كهذا.
- ربما في هذا العصر المتزمت، لكن في تراثنا كُتب حول الشراب، وفي كثيرٍ من كُتب التراث تحتل مجالس الشراب صفحات طوال ولاسيما حين يتعلق الأمر بالحديث عن مجالس الخلفاء.

ولأنه كان صامتاً فإنني كنتُ أفكر أن كتاباً كهذا الذي يقترحهُ سيكون مدهشاً وفريداً في محتواه، لكنني بالفعل لا أعرفُ إلا القليل مما يتعلق بالنبيذ. قد يكون هذا بسبب أن الطائف لا تزال تتمددُ تحت جلدي، تستقر

بكامل ما يزينها من عروش العنب المميزة لها عما ســواها من مدن الله. وربما كانت طبيعة المدينة التي ننشأ فيها هي ما يحدد ميلنا نحو شراب ما:

- أتدري أن أشهر أنواع الشراب تتبع شهرة مدينتها في زراعة أو صناعة مُنتج ما.

ودون انتظار إجابة منه رحتُ أستدل على استنتاجي هذا:

- كالكونياك المســمى على اســم مدينة فرنســية اشــتهرت بإنتاجه، والتكيلا المقطر في مناطق حول قرية تكيلا في المكســيك، وكشــراب الشمبانيا المسمى باسم منطقة شامپان أردان في فرنسا.

علّق يوسف:

- اكتب إذن.

أجبتُه:

- كانت مُخترعاتنا تُضيف بُعداً خلاقاً لصناعة كان التخمير فحسب هو قوام إنتاجها قبل أن يكتشف التقطيرَ جابر بن حيان.

كنتُ قد شعرتُ بالجوع. طلب يوسف لنا بعض السندوتشات ودون أن نعود لفكرة كتابه الذي يقترحه بدا أنه يريد الحديث عن المخطوط الذي لديه:

- قرأتُ روايتك، ولم تعجبني.

ضحك وكأنه يريد أن يشــق الجدار الذي يحمينا من فضــول المشــاركين في الملتقى الذين لا أشــك أنهم في هذه اللحظة يســكرون ويثرثرون في الغرف المجاورة. ولأنني كنتُ بمزاجٍ جيد فقد كان ردي بسيطاً وعفوياً:

- أنتَ الناشــر الذي ابتلاه الله بي، وإن كان كتابي لم يعجبك فهذا عائد إلى فساد ذائقتك.

ثم ضحكتُ بذات الطريقة التي ضحك بها. إلا أنني عدتُ للإدلاء برأيي حول النص الذي حشره في خندق الرواية:

- يا صديقي إن المخطوط الذي لديك ليس رواية. إنه مجرّد هوس.

كان صامتاً، وبدا أنه لا يفكر في الرد على ما أقول، لهذا أضفتُ:

- إنه مجرد كتابة، لأنه هوس. أعني هوس الكتابة التي تهرب من قيد التصنيف الجائر ومن أغلال المسميات البائتة. أو أن كتابي هو عري هواجسي، هذا العري الذي يمارسه المنبوذون والأنبياء والسحرة والوحيدون لأنهم يسمون نقوشهم بنصال الحكمة التي تريحهم حين تلج الوريدَ عميقاً قبل أن ينزّ الدّم فيهوي إلى أرضٍ لا يعرفون عنها شيئاً. وكلما تعافوا عادوا للانتحار بطيئاً بنصالهم المؤلمة. كأن الكاتب يجلد نفسه وهو يعزيها قائلاً: أنتِ كلّ ما سيبقى منّي. إن ما بين يديك ليس إلا كتابة، كتابة فحسب.

قال:

- أنتَ تتعرى وأنا أنشر عُريك. ما نفعله أنا وأنتَ مختلف كلّ الاختلاف، لكن كل منّا يفهم الآخر ويتفهم دوافعه، وكلانا يغفر لذاته من خلال مغفرته للآخر، على الأقل أنتَ تدرك أنني لا أستغلك. الكتبُ التي أنشرها ذات وجوه مستديرة دالة على صراحة كتّابها، لذا تمشي بخطوات خافتة لتصل إلى الناس بعد مائة عامٍ على الأقل. هذا ما يغريني في صناعة النشر الملعونة، أي أن أراهن، في كل مرّةٍ، على الحصان الخاسر أبداً.

لأول مرة يحدثني عن فلسفته في النشر، بدا لي حينها رجلاً صالحاً يمتلك شجاعة وتصميماً على إنجاح مشروعه، وفهمتُ حينئذٍ أن اجتذابه للكثير من الكُتّاب عائدٌ إلى أنه يُشعرهم بدعمه ورعايته.

كنتُ منصتاً حين تحدث عن خطته للبدء بطباعة الكتاب:

- ليس لدي ملاحظات، لهذا بدأتُ في تنفيذ الغلاف رغم أنك لم تعطني عنواناً، وأرسلتُ المخطوط للصف. سأحتاج وقتاً يتراوح ما بين أسبوع إلى أسبوعين لأنتهي منه بالكامل.

سكت، ثم سأل:

- ماذا ستسمي كتابك؟
- لا أدري.

كنتُ بحق لا أدري ما أسميه، لكنه كان كل ما اختلط بوجودي المكثّف حدّ ألا أستطيع رسم حدود واقعه من متخيله. الكُتَّاب ينتقلون من وجودهم الفعلي إلى الفراغ مع أول حرفٍ يكتبونه، بل إن الإنسان منذ أول نقشٍ استخدمه للتعبير كان يغامر بمحاولة ترجمة أفكاره التي يعجز حتى اليوم عن ترجمتها فعلاً.

- اقترحتُ له عنواناً.

سألتُه مُستغرباً:

- ما هو؟
- "الرواقي".

أعجبني اختياره. لا أدري لحظتها لماذا تصورتُ المعلم خارجاً من كتابي ومتشبثاً بقطرة من مطر عتيق، يتبعه جبلٌ من ذهبٍ مصقول ومحظياتُ

الأزمان الغابرة وعشـراتُ المريدين، وكأنه يؤسـس لمملكته الجديدة على الأرض، مُرجعاً كل ما يحيط به إلى وجود واحد ينبثق عنه العقل الكوني الواحد المقدس. لكنني، ورغم إعجابي بالعنوان الذي اختاره الناشـر، أضفت:

- إذن أضـف إليه عنواناً فرعياً، وليكن "ما أثقل كاهله من وجوده المفرط".

صمتَ قليلاً، ثم قال:

- المعلّم هو أبرز ما جذبني إلى كتابك، من النادر أن أقرأ حول شخصية لا ملامح واضحة لها ومع هذا تؤثر في طريقة تفكيري. لكن ما فائدة العنوان الفرعي؟

قلتُ، وأنا أجذب سيجارة دنهل من علبة سجائره:

- لأن الكتابة ليسـت أكثر من رموز. تماماً كرمزية الوجود الذي كلما ازددنا وعياً به كلما أغلق أبوابه دوننا وازداد غموضاً.

حين ران الصمتُ بحثتُ عن أغنية الحرية الشاملة كما أسميها، لأطلق أنينها في فضـاء الغرفة، كان بوب مارلي يعزف على الجيتار، أنا أطلقتُ النار على الشـريف. مسـتمراً في السـؤال عن البذور التي لم تنبتْ، والحرية المفقودة وحقه المشروع في الدفاع عن النفس.

- ما الذي يعجبك في بوب مارلي؟.

سأل الناشر، لكنني اكتفيتُ بالنقش على ورقة بجواره:

- "مارلي، صانع السلام، ومتشرد الطرقات المنسية، ونصير العدالة للذات الإنسانية بموسيقاه التي تعرف أن الرأسمالية لا تعني أكثر من سحق العالم الثالث وإخضاعه للسُّخرة. مارلي العابر فوق الديانات والقوميات والتفرقة، هذا الذي أطلق رصاصه على الظلم بكل أشكاله وصوره. من النادر أن تجد مُلهِماً روحياً يحترف الموسيقى فيؤثر في مستمعيه إلى درجة أن يجعل منهم محاربين لكل عتمة ومريدي منبر أي حرية. إنه كإفريقيا؛ كل شيء فيه يسير كقَدَرٍ محتوم نحو الشمس والحرية والأغاني".

تركتُ الورقة على الطاولة وانصرفت. كانت موسيقى بوب مارلي تنبعث من الحاسب المحمول الخاص بالناشر، هذا الذي تركته يتساءل:

- أهي هنادي؟ أم مريم؟

- شهر لتتعرف على جدة؟

أزاح عوده، وببطء تشرّب سؤالي المباشر. كان ينظر إلى النافذة المشرعة، ثم تدفّق:

- الدهشة هي كلُّ ما مارسته خلال هذا الشهر، كنتُ مثلاً أقف أمام عمارة الميناء أنظر إلى بنائها المتعدد الطوابق، كانوا يسمونها البُنْط، وتقع في بداية شارع قابل من جهة الغرب، كل بنايات جدة في ذلك الوقت لا تتجاوز طابقين أو ثلاثة على أكثر تقدير. لكن هذا البناء كان يبدو لي كناطحة سحاب، أول عمارة بُنيت بالحديد المسلح، تلتها عمارة محروس الخَنبَشي، ثم جاءت عمارة عوض العطيوي شيخ الجزارين بجدة. ولأفض أسرار عمارة البُنط وصل بي الحدّ أن عرضتُ على حارسها خدماتي، بأن أقوم بمساعدته

في أعماله دون مقابل، لثلاثة أيامٍ كنتُ أفتش في طوابقها عن سر هذا البناء المتعالي، ومن خلال مصعدها تعرفتُ على مظهر من مظاهر البذخ الذي لم أكن أتصوروجوده ولا الكيفية التي يعمل بها، كنت في بعض المرات أضغط على مفتاح أحد الأدواروأخرج من المصعد لأتأمله من الخارج وقد بدأ الصعود!

يعود ببصره إلى الفراغ القابع بيني وبينه، ويضيف مبتسماً بأسى:

- نشأت علاقة ودودة بيني وبين البحر، خارج سورجدة، غالباً ما كنتُ أتسكّع في حارة الكرنتينة، بحرها الذي كان عفوياً قبل أن تطأه عمليات الردم التي حولته إلى ميناء جدة الإسلامي ومصفاة البترول. أيضاً كانت هناك حارة البحر التي لم يغنني بحرها عن المياه الضحلة لبحر الكرنتينة التي كنتُ أخوض فيها بقدميّ.

يفكّر، ثم يتحوّل نحو سؤالي:

- في أحد الأيام كنتُ أجوب غرب شارع قابل، حيث أصبحتْ الأمكنة مألوفةً لديّ، وربما صار بعضها حميماً لكثرة ما تجولتُ فيه.

قاطعتُه مستوضحاً:

- والناس، ألم تتعرف إلى أحد خلال هذه الفترة؟
- باستثناء عامل المقهى اليماني لم تنشأ علاقة حقيقية بيني وبين أحد، لكنني مع نهاية هذا الشهر كنتُ قد بدأتُ أخرج مع عودي بعد أن ينتصف الليل لأدندن عليه في ساحة بجوار المقهى الذي كانوا يسمونه بالمركاز. كانت فسحة لا تطل على أي منزل، ولا

تشرف عليها نافذة. وفي إحدى الليالي شعرتُ أن هناك من يقترب لينصت إلى دندنتي. فيما بعد عرفتُ منه أنه مهتم بالفن، و أنه ضابط إيقاع لازال يبحثُ عن حلمه الخاص.

- أعتذر لمقاطعتك، ولكن ماذا حدث في ذلك اليوم بشارع قابل؟
- كنتُ قد عزمتُ على أن أصلي المغرب في مسجد عَكَّاش، وما إن صعدتُ ثلاث درجات من درجات المسجد الدالة على تميزه في ذلك الوقت عن بقية المساجد حتى سمعتُ اثنين يتحدثان بصوت مسموع حول إعلان مصنع سلسلة للألبان، فالمصنع يرغب في توظيف سائقين لدباباته التي تُستخدم في توزيع الحليب وتسويقه. كان الدباب شائع الاستخدام لنقل البضائع، وهو عربة نقل صغيرة بثلاث عجلات، واحدة في الأمام و اثنتين في الخلف. ومع أنني لم أكن أعرف كيف يُقاد إلا أنني عزمتُ أمري.
- تقدمتَ للوظيفة؟
- صليتُ المغرب وخرجتُ أبحث عن سائق دباب أتعلم منه سرّ مهنته، ولم يطل بحثي حتى دلني واحد ممن سألتهم على منزل سائق في حارة البحر. ذهبتُ إليه و اتفقتُ معه على أن نبدأ اعتباراً من صباح اليوم التالي.

كنتُ أفكّر في عزيمته التي غذّتْ خطواته من ذمار إلى حارة المظلوم، ولا أشك في أنها ستحمله إلى أبعد من ذلك:

- هكذا إذن، ومنذ عزمتَ الخروجَ من ذمار، وكل شـيء يتم بقرار مفاجئ فإقدام على تنفيذه!

قال، وكأنه يعيد تقويم ذلك الزمن الغابر:

- كل شـيء كان بسـيطاً، حتى الإنسـان كان أبسـط من أن يتركك لتدفع ثمن خياراتك وحدك، ورغم أنني عانيتُ الوحدة منذ خروجي لشـراء البندقية التي سـأقتلُ بها الإمام إلا أنني لم أعاني مرارة الاغتراب عن وطني. كل ما تطأه قدماي كان وطناً مُحتملاً، وكل سقفٍ مررتُ به كان منزلاً لا أبواب تحجبه عن عابرٍ مثلي.

تناول عوده، ودندن عليه قليلاً، ثم أضاف:

- على الفنان أن يعبر الحدود، وأن يجرب المغامرة.

سـألتُ؛ لأعيده إلى حكايته بعد اسـتطراده الذي دلني على أنه مسـكون بالماضي قدر ما هو مسكونٌ بالفن:

- تعلمتَ قيادة الدباب؟
- لم يتنفس صـباح اليوم التالي حتى كنتُ أطلب من عامل المقهى أن يضـيف خمسـة عشـر ريالاً إلى الريالين الذين مدني بهما كالمعتاد. كنتُ قد اتفقتُ مع معلم القيادة على هذا المبلغ مقابل ما سيقدمه لي، وخلال ثلاثة أيام كنتُ أقود الدباب بمهارة مكنتني من التقدم إلى الوظيفة والبدء بالعمل.
- وكيف كان عملك بمصنع الألبان؟

ضحك بصوت هادئ وقال:

- كما أخرجني الفن من وظيفتي الأولى في جدة قبل سنوات أخرجني من وظيفتي هذه.

عدلتُ من جلستي وكرّستُ نفسي للإنصات، بينما استمر هو في سرد ذاكرته:

- عندما أفسدتُ تسجيل صاحب عملي في المرة الأولى طردني بعد ليلة واحدة، بينما لم يحتج الأمر إلا لساعة واحدة لتسريحي من العمل في مصنع الألبان، كنتُ قد استلمتُ دباب المصنع محمّلاً بحاويات الحليب النحاسية متوسطة الحجم، ثم انطلقتُ على الطريق المرسومة لي لإيصال الحليب إلى الدكاكين التي زودوني بعناوينها. كان أول دكان لا يبعد عن المصنع أكثر من كيلوين اثنين، ثم الثاني الذي كان غير بعيدٍ من الدكان الأول.

تنهد وأضاف:

- ولنشوتي بالوظيفة الجديدة، وبقيادتي للدباب، ولإنجازي جزءاً من المهمة المسندة إليّ بسهولة ويسر، فإنني انطلقتُ أدندنُ بإحدى الأغاني جاعلاً من مقود الدباب آلة إيقاع مصاحبة لشدوي المستمر. حتى توقف كل ذلك فجأة في أحد المنعطفات، وقبل أن أعي تفاصيل ما حدث رأيتُ الناس يتدافعون لإخراجي من الدباب المسجى على جانبه الأيمن، كنتُ أشاهد الحليب يطوي لون الشارع الأسود وينسج بياضه بديلاً عنه.

ضحكتُ حتى شعرتُ أنني آذيته بردة فعلي هذه، لكنه تجاهل ذلك مُلخصاً أساه بطريقةٍ موجعة:

- **عندما شاهدتُ الحليب مُراقاً على الإسفلت أدركتُ أن الفن قَدَرٌ أبدي يتشبثُ بروح الفنان إلى حدّ ألا يترك له خياراً في أن يجوب أيَّ فضاءٍ آخر.**

ماذا بقي مِنّي؟ جئتُ من زمنٍ يمتلك طريقة منظّمة للتفكير، وأخلاقيات محددة للمثقف! الآن وسط هذه الفوضى أي منبر أثق به؟ لم يبق منّي إلا أنظمة علامات وبقايا رموز سيميائية تكدِّر حتى معاني الأشياء البسيطة والبريئة من حولي.

كان الناشر على الطرف الآخر من الهاتف يحاول إقناعي بإدراج اسمي في برنامج ثقافي على هامش معرض الكتاب القادم لأقرأ مقتطفات من كتابي:

- ثمَّ إن الفلاش الذي يُسلط على الفنان ليس أكثر من رصاصة. الضوء قاتل من طراز رفيع. ستكتشف في النهاية أنك انسقتَ بعيداً عن عالمك وأصبحتَ كعارضة الأزياء، فقط أنتَ ما يراه الناس ظاهراً أمامهم ولا يهتم أحد بما وراء مظهرك.
- أستغرب هذه العزلة لكاتب مثلك!

فكرتُ أن تجاربي السابقة كانت مرتبكة وملتبسة حدّ أنني لم أكن قادراً على الحكم عليها:

- الإعلام وأنظمة السياسة والمنابر والأضواء والنصوص الأدبية والفن، كل هذا لم يعد، بالنسبة لي على الأقل، أكثر من أنظمة

علامات دالة. منها ما أتعامل معه بوعي، ومنها ما أنتظر مزيداً من العلامات لأفهم طبيعته.

عبَّر أحد المريدين عن قلقه إزاء افتقاد شخصية الملك للدهاء، كان يرى أن عليه الابتعاد عن التفلسف الذي لا يدل إلا على عزلته عن كل ما يدور في مملكته، وأن معارف الملوك الذهبية لا يُمكن أن يلتقطوها من متون الكتب فحسب. لكن آخر رأى أن المعلِّم يرسم شخصية ملك أسطوري ليجعل منها أنموذجاً دالاً على قوة علم المنطق حين تهيمن على رأس الهرم الحاكم فتكنسُ في طريقها الأفكار الآسنة والمعتقدات المقدَّسة لا لقدسيتها العائدة إلى النصوص الإلهية ولكن لقدسية مصنوعة بفعل اجتهادات الفقهاء وتقادم الزمن. هنا عاد المريدُ الأول يذكّر صاحبه بأن سلطة الزمن لا يمكن إزالة هيمنتها بمعولٍ فلسفيٍ يصدم أكثر مما يُحدثُ تغييراً إيجابياً، لأن من يتعمد طمس ما يعتقده الناس بضربة واحدة لن يكافئه الناس إلا بمزيد من التشبث فيما يعتقدون ولو كان واضح الخطأ. هنا تدخل مريد ثالثٌ لينصر الأول موضحاً أن ملكاً كهذا لو قُدِّر له أن يحكمَ شعباً ما، في أي ثقافة مهما كانت، فإنه سيدفعُ ثمناً غالياً لأفكاره.

لم يقطع حوار المريدين إلا دخول المعلم إلى الرواق فجأة، وكأنه كان يمشي ببطء ويلتقطُ طرفاً مما يدور بينهم من حديث. حين

نبت بينهم كان يبتسـمُ متجهاً نحو مقعده المنصـوب في الوسـط، ولعل سرّ ابتسامته كامن فيما يحمله لهم من وجه جديد لشخصية مَلِكه، ذلك الوجه الذي لم يكن في حسبان أيٍ منهم، والذي، وبصورةٍ أشدُّ التباساً، سيزيدهم فُرقة حول ما يعنيه الملك:

- "بعد الإفطار، دلف الملك إلى مخدعه، فأغلق الســتائر ثم اسـتلقى على سـريره. كان يطلب الهدوء والراحة، وربما كان يهرب من قلق ليلته المليئة بالتأمل وصباحه المُرهق بفعل الجدل. لكنه كان يحاول جهده أن يبتعد عن طيفها الماثل في كل خلوة يعود فيها إلى نفسـه. كلّ مرّة تنبثق القديسـة من زاوية ما، شـاهدة على جميع النسـاء، مُختصِـرة لحواء، غامضة كأغنية ريفية بسيطة، وجلية كمستقبل بعيد.

- إن ما يزعجني حقاً هو ألا أجد وصـفاً للمرأة التي أحبّ، لكنني أحاول التقرّب من رسـائلها كي أنظر من خلالها إلى ذاتي. ما أشـدّ بؤس من لم يتعلق بطرف خيط يهديه إلى المحبّة، حتى وإن كان هذا الخيطُ رفيعاً وواهياً.

هذا ما ردده الملك بصـوتٍ مسـموعٍ في أرجاء السـكون المحيط به، ثم أضاف متسائلاً:

- هـل كـانـت المرأة حقـاً هي أخطر ألعـاب الرجـل؟!، ألهـذا ينشـدها المغامرون؟ ويتقرّب منها من جعل من سـاعات أيامه ولياليه نافذة تطل على المجهول؟ إن الرّجل ليس أكثر

من طفل يبحث في المرأة عن أمٍ تتقوّس على جسده فتغرقه في عوالمها الرّحبة كرحابة رحمها إذا أدرك معنى وجوده فاحتضن جنيناً موعوداً بالنبذ والحياة.

صمت الملك قليلا، قبل أن يضيف:

- ما أتعس الحياة إذ تبدأ بنبذنا إلى صخبها، وحين نُنجز خطواتنا على الأرض يبتلعنا رحمٌ قاس لا دفء فيه إلا رعب أن نختلط بالعدم.

كانت الأضواء قد انسحبت من أرجاء الغرفة، وبقي ضوء القديسة يشعّ في قلب الملك، لكنه رغم كل هذه المفارقات، ورغم العطر الذي يملأ روحه لازال لا يدرك معنى أن يحب الرجلُ امرأةً واحدةً تهبه معنى أن يكون. عندئذٍ طفت المرارة كالخَبب على كأس تأملات الملك، وبدأ يضع الافتراضات التي كثيراً ما وضعها كي يزيد من مرارة جهله بقديسته:

- ها أنذا أطوف المدينة الفاضلة التي رسمَ حدودها الفلاسفة في خيالاتهم، ألتقي بامرأة لا تُضمر إلا ما يطفح على صفحة وجهها من هدوء، فأغامر بالبحث عن حقيقة إدراكها لمعنى الصمت الذي تتلفّع به، وكأنها تختبر قدرتي على قراءة هواجسها وقد تجلَّت في شكل طِيبة متناهية وبراءة لا حدّ لها. فماذا لو كنتُ أحد ساكني هذه المدينة الفاضلة وأحد أفرادها المنتمين إليها منذ الولادة لكنني فاقد لبصيرة رؤية

ما أرادتْ لي أن أراه حقّا؟ إن الحب ليس أكثر من شـــفقة نحيط أنفسنا بها، لأننا لا ندرك الإجابة الصحيحة لسؤال كوني كهذا: لماذا نحبّ؟ وحين نحبّ؛ لا نفقه سـبب أن يكون الآخر الذي اخترناه هو هذا الشخص تحديداً دون سواه؟

ثم أضاف الملك لهواجسه بُعداً ينفذ إلى الداخل:

- الحب أشــبه ما يكون برداء فائق الدّقة بتفاصـيله المنمنمة التي ننســـجها كلَّ يوم في مثابرة وصـــبر، وحين نلتقي، في ظروف خاصّـة، بالآخر نسـارع إلى إلباسـه هذا الرداء، ولا بأس أن تتغير بعض تفـاصـــيـل الرداء بتغير المعطيـات التي تفاجئنا فيما بعد، لكننا لا ننظر للآخر بفتنة قدر ما ننظر لصنيعة أيدينا، فكأننا ننسج من نحب قبل أن نراه، وننتظره وهو رهن إبرة تتقلب بين أناملنا تخيْط المحبوب وتتوق!

كل هذا لا يعني أن الملك كان يسـتطيع نفض صـورتها من ذاكرته، فقد ســلَّم منذ زمن بعيد بأنها موشـــومة في دمه، لكنه كان يحتال بالعام على الخاص، ويهرع للتأمل الرّخو فزِعاً من تذكّر ما تعنيه قديسته له بدقّة ووضوح وما يعنيه هو بالنسبة إليها.

- هل أعني لها شيئا؟

ولشـد ما أرّقه أن ينبعث هذا السـؤال الأخير من مكمنه، فيؤذيه، ولا يغادره إلا وقد اكتست روحه بالحزن".

أيضــاً؛ كانت مريم قديســة على الدوام، حتى وهي تنكمش في كرســيها عندما أخبرتها أنني قررتُ الزواج، وكذا وهي تزداد انكماشــاً عندما أخبرتها أنها هي العمر الذي أرغبُ في قضاء بقية عمري معه.

كنّا قبل يومين من طلبي هذا نحتفل بعبورنا أربعة أعوام من البهجة والتشرد والحب والرعب المتربص، أتذكر أنها كانت تقترح في كل عامٍ مقهى "رنديفو" لنحتفل، وأنها كانت تدعو الله ألا يشــغل أحدٌ الطاولة التي رأيتها عليها أول مرّة مع رفيقاتها، كانت تسميها طاولتنا، وهي الطاولة التي استحقتْ أن نغامر من أجل الاحتفال في حضــرتها بأن نذهب إلى مكان عام. أجل، فدخول الأماكن العامة في السعودية مغامرة بالنسبة لمن لا يحملون وثيقة تُقسم في كل مداهمة يقوم بها رجال الحســبة أن حامليها متزوجان. مرةً واحدة من المرات الأربع وجدنا "طاولتنا محتلة" كما أحبّت أن تصــف الوضــع بحســرة،

لكنني افترضــتُ أن من احتلا مكاننا تقابلا ذات يوم على هذه الطاولة، مثلنا تماماً:

- ولكن لن يكون لقاؤهما في الثالث من مايو؟

حدث هذا في احتفالنا الثالث، لذا أخبرتها أن الثالث من مايو تكرر ثلاث مرات منذ عرفتها، ثم فسّرتُ لها ما أعنيه:

- قد يكونا تقابلا منذ عام، أو عامين. أو أنهما تقابلا في ذات الليلة التي رأيتُكِ فيها، وعلى ذات الطاولة، بعدنا بقليل أو قبلنا بقليل.

كان ذلك في زمن بسـيط، الزمن الذي لم نحسـب فيه عواقب ما كنّا نفعل، ولم يكن يحركنا فيه شــيء ســوى الاندفاع المحموم نحو الحياة. الحب هو التعريف الأبسط لقصة الفراشة ولهيب النار، هذا ما اعتقدتُه ليلة سهرنا معاً في شـقة أحد أصـدقائي، أخبرتها أن المكان الذي سـنذهب إليه في شـارع حراء، شــقة في بناية عائلاتْ ما يعني أنها أكثر أماناً من شــقتي التي كانت وقتذاك في بناية للمنبوذين من العزّاب. لهذا اختارت مريم أن تذهب مع صديقاتها إلى سـوق حراء، خرجتْ معي من أمام السـوق أثناء صلاة العشـاء على أن أعيدها إليه قبل منتصــف الليل، لكنها بعد أن وصــلنا إلى الشــقة أخبرتني عن نواياها، وأنها كانت قد خططتْ أن تبقى معي حتى الفجر. ثم أطلعتني على اتفاقها مع لطيفة:

- لا تخف، قلتُ للطيفة "إذا لم أعد قبل الثانية عشــر خذي البنات معك إلى بيت أخيك وابقين هناك إلى آتيكن فجراً".

وأضافتْ بحزن مصطنع:

- إلا إذا لم تكن تحب الجلوس معي

قاطعتها محتجاً:

- أنتِ مجنونة، كيف تفكرين هكذا؟ فقط ماذا سيحدث لك لو سأل عنك عبدالمجيد؟

- أولاً هو في المدينة، وثانياً أختي تعرف أني معك، وثالثاً الجميع يظن أنني مع لطيفة في منزل أخيها، ورابعاً لطيفة وعبدالمجيد لا يكلمان بعضهما البعض أبداً وهذا بالطبع لأن الله يحبك ويحبني.

رقصـــتْ تلك الليلة كثيراً، وغنّت، وكانت الليلة الوحيدة التي أرى فيها مريم نائمة. غفتْ على كتفي ونحن نشاهد التلفزيون، وضعتُ رأسها على وسادة صغيرة، وطلبتُ البيتزا. قضيتُ ما يزيدُ على نصف ساعة أتأمل ملامح وجهها الغارق في الســكينة، ولم يخرجني من متعة تأملها إلا قرع عامل توصـــيل الطلبات على الجرس. فرحتْ بالبيتزا بطريقة فرح الجوع الطفولي بكأس حليب أو قطعة حلوى. ثم أخذتها بين ذراعي ورحنا نرقص، كان ذلك في زمن بريء، الزمن الذي كررناه بعد ذلك في هذه الشقة أكثر من اثنتي عشرة مرة.

يقرأ الكاتب في زمنه البعيد مصــادفة متأخرة، أو هي الأشــياء التي نصرّ على أن ترمز إلينا. شعر أنه يغرس سكيناً في خاصرته منتظراً أن يكون الحبُّ خلاصاً:

- كان طفلاً لا يجد من يلعبُ معه.

- كنا كذلك، نحن قياســاً إلى أطفال اليوم مجردَ كائنات تتنفس في الفراغ.

هكذا علّق الناشر، فعاد الكاتب إلى طفولته:

- الطفل الذي لا يجد الألعاب، ولا يجد من يلعب معه، ولا يجد ما يشاهده ويضحك، لا شك أنه سيكبر وهو يراقب يباس العالم.

صباحاً، ولأنه الثالث من مايو، وضعتُ اسطوانة "داليدا" في جهاز الدي في دي وأنصتُّ لـ "زمن الزهور":

"في حانة من حانات لندن القديمة
حيث الغرباء كانوا يلتقون
أصواتنا الممزوجة بالفرحة، كانت تتعالى في العتمة
وكنّا نستمع لقلبينا يغنيان".

لم نلتقِ في حانة من حانات لندن، ولا في حانة من حانات الخاصة بجدّة، لكننا التقينا في زمن الزهور، غرباء عن جدة، وعن المحيطين بنا وحتى عن أنفسنا. ربما كان طيفها حاضراً معي بعد ذلك في كل حانة عبرتُها غريباً ووحيداً. هذه هي الفكرة الأولى التي تتلبسني كفتنة طويلة أقرؤوها بطريقة "محمد شكري" على طاولة تمتد كمفازة بيني وبين من يقدم المشروبات إلى الكائنات الليلية:

- أيها الليليون، أيها النهاريون.. أيها الـ.

ولأنها حاضرة بصورة ما، فإنها تنبش قلبي بحثاً عما كان، وما لم يكن، أما حين أتلفتُ ولا أجد شيئاً غير حزن آخر ملقى على رّخام البارات البارد، فإنني أناشد الساقي:

- أرجوك، أريدُ أن أسكر جدّاً، وأن أموت جدّاً، وأن ينساني البعث والنشور.

"كان ذلك في زمن الزهور
كنّا نجهل الخوف

كان للأيام المقبلة.. نكهة العسل
كان ذراعك يأخذ بذراعي
وصوتك يتبع صوتي
كنّا في أوّل العمر.. ونظنّنا في أعالي السماء
لالا..لالا..لالا"

نعم، كان ذلك في زمن الزهور، لأننا التقينا أربع مرات في الأماكن العامة، ولمرتين أخيرتين في المخابز الفرنسية الأقرب إلى منزل أختها.

- ومن قال لكَ إني أفكر بالزواج أصلاً؟!
- إذاً لماذا التقينا؟

ولاذت بالصمت. طويلاً سكتت قبل أن تحدثني عن طريقتي المدهشة في إفساد الأشياء الرائعة.

"ثمّ أتت الأيام الضبابية
مع ضجيج غريب.. وبكاء
كم من الليالي قضيتُ دون قمر
باحثة في قلبي عن تلك الحانة
كل ذلك كما في زمن الزهور
حيث كنّا نعيش دون خوف
حيث كان لكل يوم نكهة العسل
كان ذراعك يأخذ بذراعي
وصوتك يتبع صوتي
كنّا في أوّل العمر.. ونظنّنا في أعالي السماء

لالا..لالا..لالا"

في الليلة الوحيدة التي اقتحمتْ فيها شقتي بعمارة المنبوذين فهمتُ ما تحمله روحها من مغامرة. كان مجرد الإصـــرار على دخول حي "الثَّغَر" الذي أســـكن فيه انتحاراً:

- بجواري مسجد الأمير متعب، وأمامي الكثير من محلات التسجيلات الإسلامية وبيع دهن العود.
- أريد أن أرى أين وكيف تعيش.
- المكان يعج بالمتدينين الذي ســيرون فينا، لو انتبهوا إلى دخولك عندي، فرصةً للجهاد وقمع الرذيلة وسيعلقونك من شعرك في أحد أعمدة النور.

ضحكتْ، وقالتْ:

- سأخرج معك بعد العاشرة ليلاً، ولن نصل إلى بيتك إلا وقد ناموا. لا تنس أن صلاة الفجر بانتظارهم.

بالفعل، قضـــتْ الليل بطوله عندي، وأعدتها إلى منزل لطيفة قبل صـــلاة الفجر. لكنني كنتُ اشعر أن شيئاً ما سيحدث. اتصلتُ بها بعد عودتي إلى منزلي فلم يجب أحد. وعاودت الاتصال بعد الظهر لتجيب أختها:

- لا تتصل مجدداً حتى تتصل هي بك.

يومان مرّا قبل أن تتصل:

- مكتئبة ومقهورة، لكنني على استعداد لتحمّل أضعاف أضعاف هذا الألم لأكون لساعة واحدة معك.
- اتقي الله، كنتُ سأسميك الشهيدة مريم.

- الله يكسر يده، ما ترك فيَّ خليةً لم يضربها، كان يضربني بحقد.

صمتتْ، قبل أن تستبدل نبرة صوتها المتألمة بنبرة عابثة:

- لكننا قضينا ليلة لن أنساها.

نعم، كانت هذه هي الشهيدة مريم، وكان ذلك في زمن الزهور.

"كنتُ أتخيّلني أطارد الضباب
كنتُ أظنّني قادرة على العودة بالزمن
وأتوهّمُ لروحي أضواء القمر
حيث أنت وأنا كنّا نغني ... كما في الماضي
كان ذلك في زمن الزهور
كنّا نجهل الخوف
كان للأيام المقبلة.. نكهة العسل
كان ذراعك يأخذ بذراعي
وصوتك يتبع صوتي
كنّا في أوّل العمر.. ونظنّنا في أعالي السماء
لالا..لالا..لالا"

ولأننا في أول العمر، فإنها لم تفهم طريقة استشهادها التي رسمها لها محيطها المكفهر:

- إذا كنتَ تحبها فابتعد عنها من أجل مصلحتها.
- أنتِ أختها وتستطيعين إقناعها، أو على الأقل أريد أن أفهم سبب رفضها الحديث معي.
- سأحاول معها، ولكن هذا لن ينفع.

على الدوام كانت مريم قديسة، حتى وهي تعلنها صراحة:

- حتى لو تزوجت، فلن أتزوجكَ أنتَ بالذات.

كانت هذه هي عبارتها النهائية في لقائنا الأخير بالمخابز الفرنسية، هذا اللقاء الذي رتبته أختها تحت ضغطي وإلحاحي المتواصل، وكانت ستحضر معها، لكن مريم جاءت لوحدها:

- ثم إن أهلي قرروا أن أعود إلى المدينة، بعد أن أخفقتُ في الجامعة.
- كل شيء يقرره أهلك.
- لا، أنا قررتُ أنني لن أتزوجك، لا علاقة لأختي أو للطيفة بقراري هذا.

كنتِ تملكين الحق في الحب، لكنك لا تملكين القرار في الانسحاب بهذه الطريقة إن كنتِ قد أحببتني فعلاً. كان هذا هو الهاجس الذي لم أقله لها، وهي تجمع أشياءها وتغادر المخابز الفرنسية باتجاه سيارة الأجرة التي تنتظرها تحت رذاذ المطر النادر في جدة. لزمتُ الصمتَ لأن عبارة "لن أتزوجكَ أنتَ بالذات" جعلت من العبث قول أي شيء مهما كان منطقياً ومقنعاً.

"وهذا المساء.. أنا أمام الباب
باب الحانة.. حيث لن تأتي
وتلك الأغنية التي يحملها لي الليل
لم يعد يعرفها قلبي"

يا الله، ما أبعد صوت داليدا عن النسيان، هذا الصوت الذي يشبه وجع القمر. منذ أول يوم التقيتُ فيه مريم وحتى اليوم الذي عرفتُ فيه أن داليدا انتحرت في الثالث من مايو احتجت إلى عشر سنوات تقريباً، أنا الذي كنتُ

أسـمعها قبل حتى أن أعرف معنى وجود الفتيات على الأرض. عشـر سـنوات تقريباً منها ما يُقارب السـت سـنوات على ذهاب مريم شـمالاً، إلى المدينة، حيث لا عودة.

"كان ذلك في زمن الزهور
كنّا نجهل الخوف
كان للأيام المقبلة.. نكهة العسل
كان ذراعك يأخذ بذراعي
وصوتك يتبع صوتي
كنّا في أوّل العمر.. ونظنّنا في أعالي السماء
لالا..لالا..لالا"

كان ذلك في زمن الزهور، حيث لا نفهم معنى أن تنتحر سيدة تمتلك كل هذا المجد لأنها لم تعتد تحتمل الحياة، ولا سـبب طلبها الغفران لأنها قررت أن تنهي حياتها: "الحياة لم تعد تُحتمل؛ سـامحوني". وفي زمن الزهور أيضـاً، كانت مريم لا تدري ما الذي تفعله، ولا السـبب الذي يدفعها للانتحار، كما أنها رحلتْ دون أن تطلبَ غفراناً من أحد.

- لم تتقدم إلى أي عمل بعد ذلك؟

ســألتُه، وكان قد ركن عوده في زاوية الغرفة بعد أن انتهى من عزف أغنية من أغانيه القديمة. كان يتجلى كثيراً عندما يعزف تحت وطأة رغبته هو لا تحت ضــغط المحيطين به، لذا من النادر أن يطالبه أحدٌ ممن يعرفونه جيداً بأن يغني لهم. بعضـــهم كان يحتال لدفعه دفعاً إلى التقاط عوده والإبحار في عوالمه الأثيرية بأن يســأله عن الفرق بين مقامين، أو أن يحدثه عن الموسـيقى، وكان الحديث عن الموسـيقى يذهبُ بالعازف في فضاء الله بعيداً حتى لا يعود قادراً على التعبير عما يحســـه تجاهها فلا يجد بُدَّاً من مداعبة الأوتار و اقتراف النغم كخطيئة نورانية لا يفهم أبعادها أحدٌ إلاه. بعد أن تجاوز مفازة الصـمت التي يضـعها بين أي سـؤال يقتحم منطقته الخاصة وبين إجابته، قال:

- وعيتُ مقولة أحد الموسـيقيين العالميين بأن الموسـيقى تسـتطيع أن تســتوعب كل مظاهر الحياة، بينما لا تســتطيع الحياة أن

تســتوعب كل مظاهر الموســيقى وتجلياتها، ولهذا قررتُ أن تكون هي عملي.

ويضيف، بعد أن يلتفت إلى عوده ليطمئن أنه لم يتزحزح من مكانه:

- كنتُ قد حدثتُك عن فتى يافعٍ يأتي إلى خلوتي في الساحة المجاورة للمقهى ليســتمع إلى عزفي، مع مرور الوقت تعرفتُ إليه، كان حضرمياً اسمه الحاج محمد سعد، بدأ الجلوس أمامي ومتابعتي و أنا أعزف، وفي إحدى الليالي جاء بطبلته، وبدأنا الغناء.

وبعد لحظة استدرك:

- كان ســبب نزولي من الطائف إلى جدة هو رغبتي في الالتحاق بإذاعة جدة، لذا يممتُ شــطرها وتقدمت بطلب للحصــول على مو افقة لجنة الموســيقى في الإذاعة بدخول المقابلات التي يعقدونها للمطربين الجدد، وهذا ما حدث، إذ لم يمر أســبوع إلا و أنا أمام لجنة مكونة من ثلاثة فنانين، اســتمعوا إلى عزفي على العود، وكذلك إلى بعض الأغاني الصــنعانية التي اخترتُ تأديتها أمامهم، كما أســمعتُهم شــيئاً من الحاني. كنت حينها لم أتجاوز الخامسة عشرة من عمري.
- ولا بد أنك اجتزت مقابلة اللجنة؟

نظر إليَّ، وقال:

- مع نهاية المقابلة سألني أكبرهم سناً عن العمل الذي كنتُ أمارسه قبل مجيئي إلى الإذاعة، وعندما سألته عن سر سؤاله قال: لكي ترجع إلى عملك السابق وتنسى أمر الموسيقى.

توقف للحظة، ثم واصل حديثه:

- خرجتُ من مقابلة اللجنة و أنا أقطر أسىً. وفي واحد من ممرات المبنى رآني أحد مخرجي الإذاعة، عرفتُ فيما بعد أنه الشاعر صالح جلال، سألني عن سرّ أساي فأخبرته بما حدث معي. قال لي "لا تهتم، اذهب الآن، ثم عد بعد صلاة المغرب، وستجدني في هذه الغرفة". وأشار إلى إحدى الغرف.

ولتشجيعه على الاستمرار سألته:

- وعدتَ بعد صلاة المغرب؟
- وطرقتُ باب الغرفة التي أشار جلال إليها صباحاً لأجده في انتظاري. سألني بعض الأسئلة حول من أكون، وماذا أستطيع أن أغني. ثم طلب منّي تسجيل أغنية من ألحاني، فسجلتها.

نظر إليَّ، وسألني:

- تخيل ما الذي حدث؟

ودون أن ينتظر ردّي، واصل الحديث:

- لم يمض سوى أسبوع أو أقل حتى سمعتُ صوتي عبر أثير إذاعة جدة. كانت المرّة الأولى، وكنتُ لا أدري أي شعور كان يعتمل في صدري، فما بين فرح لا حدود له وما بين قلق وخوف كنتُ أنصتُ

إلى أغنيتي مع من ينصتون إليها وهم يجرون دخان شيشهم على كراسي المركاز الذي كنتُ أنام فيه.

- وماذا عن رفيقك "الحاج"؟
- استمر حالنا على ما هو عليه في الفسحة المجاورة للمقهى ولعدة ليالٍ، حتى حدثت حادثة مصنع الألبان، بعدها اقترحتُ عليه أن نغني في مسرح الشارع لنكسب قوتنا، فكانت حماسته شديدة.

ضحك، مضيفاً بدعابة:

- وهكذا شكّلنا فرقة فنية من فردين اثنين فقط، وكنتُ أنا بالطبع قائد الفرقة.

تعجبتُ من قدرته على التأقلم مع كل ظرف، والسخرية من أقداره التي يبدو أنه يصنعها بيديه، بينما واصل حديثه:

- ما يقرب من ثلاث سنوات كنتُ أبحث عن فرصة لاقتحام مسرح الشارع، وطيلة هذه السنوات واصلتُ ورفيقي الحاج الغناء والتدريب.
- ماذا يعني مسرح الشارع؟

وكأنه يستعيد ماضياً موغلاً في القِدم نبشَ ذاكرته:

- يقوم أصحاب العرس بسد أحد أطراف الشارع ويضعون في آخره مسرحاً. أي أنه عبارة عن الأفراح التي يقيمها أعيان جدة.

يصمتُ، ويطول صمته، حتى لكأنه توقف عن سرد حكايته، لكنه ينبثق فجأة عائداً إلى فترة انتقاله من السكن في المقهى:

- بعد شهر، انتقلتُ من المقهى للعيش في شقة صغيرة بعمارة نصيف في حارة اليمن، كان الحارس الذي تعرفت إليه في عمارة البُنط، تلك العمارة المدهشة التي كانت أول بناء أراه مبني بالخرسانة المسلحة، هو من ساعدني في إيجاد هذا السكن، وهكذا استوطنتُ جدة.

كنتُ قد أحجمتُ عن السؤال، ولكنه سألني كمن يحدّثُ نفسه:

- أتصدقُ أنّ أول حفلة غنيتُ فيها أمام الجماهير وبشكل مباشر، وحتى قبل أن أغني على مسرح الشارع، كانت أمام الملك فيصل؟

حين بدت عليَّ علامات الدهشة، قال:

- مضى ما يقارب العامين منذ كونتُ فرقتي المقصورة عليّ أنا وعلى "الحاج"، كان قد سمعني بعض أعيان جدة في مجالس أصدقائي، ولم أكن أخذتُ فرصتي للغناء في مسرح الشارع بعد. وفي إحدى الليالي حضرتُ أحد هذه المسارح، وبقيتُ حتى انتهى الفنان الرئيس من دوره في الغناء، وعندما فرغَ المسرح دفعني بعض الحضور لأجد أني وجهاً لوجه مع الجمهور. لم أحمل عودي معي تلك الليلة، لذا طلبتُ العود من الفنان الذي نزل تواً لكنه رفض.

أضاف بأسى:

- صفّق لي جميع الحضور، وكانوا قد تعودوا على رؤية مثل هذا الموقف من قبل. استمروا في التصفيق الذي لم يمنعني من

النزول عن المسرح وقد ظهرت على وجهي علامات الأسى والحزن. وما إن عدتُ إلى مكاني بين حشد الحاضرين، حتى تقدّم مني رجلٌ في منتصف الثلاثينات من عمره كما ظهر لي، وأخذ يديّ بين يديه وقال: "لو تركتَ لهذا الموقف فرصة ليكسرك فلن تغني أبداً". عرفت فيما بعد أنه أحمد باعيسى أحد موظفي الجمارك، ولم أستغرب حين علمتُ أنه يعودُ إلى أصول حضرمية لمعرفتي بمدى حب أهل حضرموت للغناء والطرب.

عاد شغفي بمعرفة التفاصيل للظهور فسألته:

- بعدها كانت الحفلة التي غنيتَ فيها أمام الملك فيصل؟

أجاب:

- بعد هذا الموقف عكفتُ على حفظ الألحان والتمرن على عزف العود والاطلاع على كل ما له علاقة بالمقامات والموسيقى، مع استمراري في الغناء بين الأصدقاء، كما أنني عدتُ للبحث عن عملٍ لآكل منه إلى أن أجد فرصتي، لكنني لم أكن أستقر في أي عمل لأكثر من ثلاثة أشهر.

بعد أن اعتدل في جلسته، عاد ليسرد قصة أول ظهور له على المسرح:

- جرت العادة أن يحضر غالبية أهل جدة مسارح الشارع، أو أي مناسبة يمكن أن يستمعوا فيها إلى الغناء. لم تكن القنوات التلفزيونية قد انتشرتْ بين الناس بعد، وكانت الإذاعة قد عرّفتهم إلى مطربين يسهل عليهم حضور حفلاتهم في مسارح

الشــوارع والاحتفالات العامة، فكانوا يحضــرون. ومن ذلك ما حدث منتصــف الســتينيات الميلادية حين جاء الملك فيصــل إلى جـدة لافتتـاح مصـــنع العطيوي للجلود، وهو الأول في هـذه الصــناعـة على مســتوى المملكة. وكان مقرراً أن يلي الافتتـاح فعاليات فنية. حضــرتُ لمشـــاهدة المغني الرئيس للاحتفال وكان عمر كدرس، إضــافة إلى محمد عبده الذي لم يزل حينها في بداية مشواره. بعد أن انتهى الاثنان من الغناء وجدتني مدفوعاً، وبذات أسلوب مسرح الشارع، إلى المسرح. لأفاجأ بأنني أقف، وكنتُ فتى لم يتجاوز عمره الثـامنـة عشــرة، أمـام الملـك فيصـــل، وأمـام الجماهير، وبذات الطريقة التي سبق أن وقفتُ بها في تجربة مريرة سابقة، كنتُ بلا عود.

قلتُ مبتسماً:

- ولم يعطك أحدٌ العود؟

أجاب:

- بل قدَّم لي الفنان عمر كدرس عوده، وغنيتُ لأول مرة.

وبنبرة اعتزاز أضاف:

- بعدها احترفتُ الوقوف على مســرح الشـــارع، بصــحبة رفيقي "الحاج" وبعض العازفين الذين تجمعوا حولي. صــرتُ نجماً إلى درجة أن بعض العائلات كانت تغيّر موعد فرحها إلى النهار بدلاً من الليل إذا حدث وصادفت ليلة فرحهم ارتباطي بفرحٍ آخر.

تنهّد، وأضاف:

- أتذكر في بدايات غنائي على مسـرح الشـارع أنني شـاركتُ في حفل زواج عمدة من أهم عُمد الأحياء في مدينة جدة، كان الشـيخ علي عبدالصمد عمدة حارة اليمن، وكانت مشاركتي مع الفنان الكبير عبدالله محمد. في ذلك الوقت من كان يجرؤ على الوقوف بجانب عبدالله محمد؟ كنتُ فدائياً، حملتُ عودي وتناوبنا الغناء. ولأنني أحد سكان الحي ذاته اعتبرتُ مساهمتي في الغناء واجبة فرفضتُ أخذ الأجر، وإذا بالشـيخ في اليوم التالي يسـتدعيني ويضـع تحت تصـرفي بيتاً من بيوته المجاورة لمقر سـكنه، بعد أن جهز لي فيه مسـرحاً ومجموعة من الكراسـي ووظف عاملاً للاهتمام بالمكان، كان ذلك المسرح أول معهدٍ موسيقي في جدة.

وكأنه يداري غصته استمر في تدفقه:

- بدأ يتوافد على المعهد من يرغبون في تعلُّمِ الموسـيقى. جميعُ مُلحني هذا البلد كانوا إما يعزفون خلفي في مسرح الشارع أو كانوا متدربين في معهدي. أتذكر من متدربي المعهد على سـبيل المثال سـراج عمر، ومحمد شـفيق، وسـامي إحسـان، وعلي هباش، وعبدالله باعراقي، وجميعهم كانوا من عازفي آلة الكمان، أما عازف الناي فكان عبدالعزيز رسـلان، كما كان الفنان محمد العماري يقوم بتعليم النوتة الموسـيقية للمتدربين، بينما كان

حيدر فكري يغني معي. ومن متدربي المعهد كوّنا فرقتنا، أول فرقة أهلية في جدة. واستمرتْ حتى حدث الانشقاق.

ولأن مفردة الانشــقاق كانت دالة على عزمه مواصــلة الحديث، فإنني لم أبدد صمته الذي ما لبث أن تلاشى:

- بعد مضي أشهر على انضمام أحدهم، وكان عائداً من سوريا في ذلك الوقت، حصل انشقاق في الفرقة، فنشأ ما سُمي بعد ذلك بفرقة النجوم، وكانت للسعوديين فقط، إضافة إلى ثلاثة أو أربعة من الإندونيسيين الذين ترجع أصولهم إلى حضرموت.

مضى أسبوعان على آخر لقاء بيني وبين الناشر الذي اتصل يطلب أن نتغدى من الغد في مكان عام لكنني اعتذرتُ ودعوته لزيارتي غداً مساءً. أسبوعان، لا بد أن كتابي قد تخلّق. قضيتُ هذين الأسبوعين في مشاهدة الأفلام وزيارة الأصدقاء والجلوس في دريم لاند، والاستماع لذات الأسطونات الموسيقية، فقط حصلتُ من أحد الأصدقاء على اسطوانة ضمت معزوفتين للفرنسي موريس جار، إحداها كانت موسيقى دكتور جيفاغو، أما الأخرى فأظنني سمعتها في زمن لم يعد معي منه إلا قصاصات ذاكرة مجهولة من عصر بالغ القِدم.

يُفترض الليلة أن أنام مبكراً لا لشيء إلا لرغبتي في الحفاظ على برنامجي الذي بدأتُ أتعوده؛ لكنني بعد اتصال الناشر غيرتُ الخطة، لا بد من احتفالٍ خاص وصغير قبل رؤية الكتاب العاشر. يا الله، الكتاب العاشر، "الرواقي"!. لماذا كلما اتسعت دائرتي تُهتُ وكلما ضاقتْ اختنقت، لماذا أفكر أن كل كتاب أكتبه لا بد أن يقفز على سابقه وأن يتجاوزه دون أن أفكر

بكتابة ما يمثلني الآن، لماذا عليَّ أن أواصل البوحَ في وسطٍ متكتّم. وضعتُ قطعة ثلج في فمي واسترخيت على كرسي خشبي يمنحني القدرة على الغياب في هواجسي. أنا الذي عاش عمره لم يفهم، أنا الذي حاول الفهم دون أدنى فكرة حول ثِقل وعيه الذي كلما ازداد نغّص عليه حياته.

ملأتُ كأساً من نبيذي، ووضعتُه أمامي على الطاولة ورحتُ أتأمله. الكاتب كالمغامر الذي حين تنتهي مغامرته بمأساة يلجأ إلى الله، ولكنه يكون قد تأخر جدّاً. ماذا؟، هل يستطيع لصوص النار كتابة كل شيء في كتاب، أين هو هذا الكتاب الجامع؟؛ الماضي والحاضر والفرح والحزن والقريب والبعيد وكل الجهات وجميع الأبعاد والقوة والضعف، كتاب يعتسف اللغة لصالحها هي وليس لغاية الكاتب؟ كأن هذه الليلة تعيدني إلى فرحي وخوفي الذين اختبرتهما عند أول كتاب. اعتقدتُ فقط أن السبب عائدٌ لكونه كتابي الأول، لكن، وكمن يصعدُ نحو المجهول، مع كل كتاب يزداد الخوف ويتعاظم الفرح. الفرح؟، نعم، ولكن بعد أن صار صيغة تشبه الشفقة: "أنا هنا، لا زلتُ أعيش، لازلتُ أحلم، لا زلتُ أكتب، لا زلتُ أكتب"! أما الخوف فإنه الصيغة الأكثر قرباً للرهاب النفسي الذي يفوق الوصف. الكاتب كمن يقوم بتغسيل الموتى، يستطيع أن يجيد تغسيل الميت وأن يبلغ أقصى درجات الإجادة في ممارسة صنعته لكنه لا يستطيع أن يضمن له الجنة. حين لا يعود الكتاب بين يديك، حين تراه في أيدي الناس فإنك وحدك من يرى جثتك التي قمتَ بسلخها أنتَ نفسك دون سواك.

شربتُ نصف كأسي، ورحتُ أحدّق في نصفه الباقي. لا شيء سوى الدخان فاصلاً بين الأشياء حين أفرّ من قلقي نحو حافة الكتابة، لأجد أني أطل بتوق من الهاوية وأقفز. "الرواقي"، قفزتي العاشرة التي أردتُ أن أقول من

خلالها، تماماً كالذي أردتُ قوله في المرات التسع الماضية، أنا لا أكتب لإصلاح العالم ولكنني أكتب لترميم ذاتي الغارقة في العَتمة والوحدة والقلق. قفزتي العاشرة التي أريد أن أنسى من خلالها كل أفكار علم النفس وعلم الاجتماع ووصايا الزمن البائد ومواعظ الآن حول ما سيأتي ونُذرُ ما سيأتي حول كَدر الآن. القفزة التي أريدُ أن تكون في هواء لم يلوثه أحد بأفكار مشوشة كأفكار شوبنهاور ونيتشة التي صنعت هتلر، أو الإرث العربي الذي صنع صدام حسين، أو كأي من أفكار الفلاسفة الذين توهموا أنهم عرفوا الحقيقة فكانت معرفتهم وبالاً. لا أدري لماذا تذكرتُ فجأة فكرة كازنتزاكيس التي أوردها على لسان زوربا حول المثقف حين وصفه بأنه مجرد فأر كُتب. هل لأن الفأر هو الذي خرَّب سد مأرب. بطريقة ما؛ ربما لم تكن الثقافة تعني شيئاً سوى الخراب.

شربتُ ما بقي من كأسي، ثم قمتُ إلى جهاز الدي في دي وأدرتُه، كانت فيروز تهتف: "حبك يا لبنان"، كنتُ أسمعها وأنا متجه نحو الثلاجة لأتناول قطعة ثلج وأضعها في فمي: "وإذا إنتَ بتتركني يا أغلى الأحباب، الدنيا بترجع كذبه وتاج الأرض تراب"، أنا الذي تركتُ وطني لأنني لم أرد الاعتراف بأن مريم صارت بعيداً، كنتُ أظنها ستتبعني إلى الشمال، إلى هناك في مدينة لا يحتاج الحب فيها إلى مواعظ ووصايا وتجارب يتطوع من فشلوا في توعدك بذات الويل والثبور الذي حصدوه. ظننتُها ستتبعني، رغماً عن بؤس محيطها إلى مدينة كبيروت التي اكتشفتُ منذ وضعتُ قدمي على أول رصيف فيها مرارة أنها ليست السعودية. الجنة التي لا تعني لطفولتي شيئاً ولا تحمل رائحة أمي لا تكون جنّةً أبداً، بينما يمكن أن يكون الجحيم مقبولاً، فقط لأنه وطني.

حين غادر الأصــدقاء مجلســنا وجدتُ أنني والعازف آخر من بقي، لم يبد أنه يستعد للمغادرة لاسيما و أنه كان مغلِقاً صوت التلفازويتابع صوراً في إحدى القنوات الوثائقية، اســتنتجتُ أنه يفكرُ في أمرٍ ما. لكنني وجدتُ الفرصة مو اتية لسؤاله عن لقائه بطلال مداح:

- بعد رؤيتك الأولى لطلال مداح في مدينة الطائف، كيف كان لقاؤك الأول به في جدّة؟
- كانت مصادفة غريبة.

قال ذلك قبل أن يعدّل من جلسته ويسترسل:

- في منتصــف الســتينيات الميلادية تبنّى الملك فيصــل الدعوة إلى التضامن الإسلامي، فانطلق يزور البلاد الإسلامية، وبالذات دول القارة الإفريقية وشــبه القارة الهندية، موضحاً أهداف دعوته، مما مهد لقيام منظمة المؤتمر الإســلامي بعد محاولة إحراق

المسجد الأقصى، دامت هذه الرحلة قرابة شهر. في الليلة التي سبقت اليوم المقرر لعودته إلى جدة طلب وزير الإعلام من الإذاعة إنتاج عمل فنّي يجسد المناسبة ليذاع في المطار لحظة استقبال الملك. وكنتُ موجوداً في بيت أحد أعيان جدة وكان معنا في المجلس المذيع الخاص بالملك فقام بتعميم طلبَ وزير الإعلام عبر الهاتف على الفنانين فلم يستجب أحد؛ إما لعدم وجود نص جاهز، أو لأن المدة الزمنية القصيرة لم تكن كافية لإنجاز عمل كهذا. عند عودتي إلى منزلي تلك الليلة وجدتُ نصاً يجسد المناسبة وكان منشوراً في إحدى الصحف فقمت بتلحينه، ليجدني موظفو القسم الموسيقي بالإذاعة أبدأ يومي معهم حاملاً عودي. كان "تنويتُ" العمل هو أول ما قمنا به في ذلك الصباح، ثم عمل البروفات فالدخول إلى الأستوديو لتسجل العمل.

توقف، ونظر إليَّ مباشرة ليضيف:

- حين هممتُ بالغناء انتصب أمامي عائقٌ كبير، وهو أن العمل وطني بينما كنتُ لا أحمل الجنسية السعودية. ولكن وأمام اضطرارهم للتسجيل اقترحوا أن يغني الأغنية طلال مداح. إلا أن اقتراح اسم طلال لم يحل جزءاً من مشكلة تسجيل العمل، ففي ذلك الوقت لم يكن قد وجد نظام "التِّرِكَّات" وهو النظام الذي يتيح للمطرب أن يسجل صوته على الموسيقى التي يمكن تسجيلها قبل حضور المطرب. كان لا بد أن يسجلا معاً، الأمر الذي

يتطلب أن يحفظ المغني اللحن، فما الحل خصـوصـاً أن الفرقة الموسـيقية سـتسـافر ظهراً مع الفنان محمد عبده لإقامة حفل بمناسبة افتتاح القاعدة العسكرية في المنطقة الشرقية. هنا رفع القـائمون على الإذاعـة الأمر إلى وزير الإعلام ليسـتـأذن الأمير سلطان في تأجيل سـفر الفرقة، وهو ما حدث فعلاً. وحضر طلال وتم غناء الأغنية. كانت المرة الأولى التي ألتقي به فيها، وقد أخبرني أنه قد سمع بي، لأشعر لحظتها أن العالم بأسره قد سمع بي.

صمتَ للحظة، ثم قال:

- امتدتْ علاقتي بطلال لسنوات بعد ذلك.
- وما أبرز ما تحمله معك من ذكريات حول علاقتكما؟
- الكثير والكثير من الذكريات.

ومبتسماً أضاف:

- أتذكر مرة أننا كنا في رحلة فنية إلى جُزر الكناري، كان ذلك في بداية الثمانينيات الميلادية. ما إن وصلنا حتى اقترح عليّ طلال أن نخرج لرؤية معالم مدينة لاس بالماس، فانطلقنا نجوب المدينة الصـغيرة في سـيارة أجرة. وبعد أن أحطنا بالمدينة ومعالمها، اقترحتُ على طلال أن نصـعد إلى قمة الجبل المطل على المدينة، فوافق، وصـعد بنا التاكسـي حتى القمة. رأينا على مد البصـر الحقول الزراعية، كانت قمة الجبل منبسـطة وشـاسـعة، وتتوزع فيها الأكواخ الصـغيرة والمزارع التي كان بعضـها على شـكل مدرجات. ارتأى طلال أن نصـرف السـائق وأن نبقى في الجبل

لبعض الوقت، وهذا ما حدث. كنا نجلس في مواجهة ذاكرة مدينة الطائف، أنسانا اخضرارُ أشجار التين والبرشومي والعنب الوقتَ، وعندما حلّ الظلام أردنا أن نعود، لكننا لم نجد سيارة تقلنا إلى سفح الجبل، كما أننا لا نجيد الإسبانية. وبعد أن أعيتنا الحيلة جلسنا ننتظر معجزة لتحل مشكلتنا، فالجبل كان عالياً ومتعرجاً ومتعدد المسالك وهو ما يعني استحالة أن نغامر بنزول تلك المتاهة مشياً. لكن حدثت المعجزة التي لم يطُل انتظارنا لها، إذ مرَّ بنا أحد المزارعين الذي ما إن رآنا حتى فهم بسهولة ما نحن فيه، فلم يكن مظهرنا يدل على أكثر من غريبين تاها في قمة هذا الجبل المعتم، استضافنا المزارع في أحد الأكواخ. وفي صباح اليوم التالي ركبنا ثلاثة حمير بصحبة ابن المزارع الذي كان دليلنا إلى سفح الجبل.

حضر الناشر حاملاً زجاجة تكيلا كان يلفها كالجنازة في كيس بلاستيكي معتم. مدني ظرفاً وضعته جانباً قبل أن أطلب العشاء. قمتُ لإحضار كأس صغيرة له ومتوسطة لي:

- ما رأيك أن تشرب تكيلاك في فنجان قهوة، وبهذا تراعي أدبيات شربها مع حفاظك على إرثنا السعودي الأصيل.

وضاحكاً أضفتُ:

- وبهذا تكون أول من زاوج بين الحضارتين المكسيكية والسعودية.

لم أسمع تعليقه الذي كان مختصراً وغير واضح، لكنني سمعت سؤاله وأنا أعود حاملاً الكأسين الفارغين:

- أين ذهبتْ الجدران؟

كنتُ قد تخلصتُ من آخر جدار قبل أسابيع. الشقة التي استأجرتها كانت ذات جدران مرنة ليسهل تغيير توزيع الغرف حسب الحاجة، وفي كل مرة كنتُ أكتشف أنني لستُ بحاجة لغرفة أو ممر، حتى لم تعد الشقة أكثر من غرفة واحدة بأعمدة ونصف جدار يخفي المطبخ وراءه ودورة مياه.
أجبتُه بعد أن تنبهتُ إلى أنني أعيش في مفازة:

- أحلمُ بعالمٍ مفتوح. ربما كنتُ أنتظر الزمن الليبرالي الذي بشَّر به هيجل.

حين بدأنا نشرب أخذ يوسف جهاز التحكم وبدأ يتابع القنوات الفضائية. أعرف طريقته المميزة في تصفح برامجها. يبدأ من القناة رقم واحد في قائمة القنوات ويستمر كمن يمشي متنزِهاً، يمر ببعض الأماكن ويرتاح ببعضها الآخر، لكنه لا يتوقف إلا وقد عاد إلى القناة رقم واحد.
تركتُه يمارس هوايته، وتناولتُ الظرف. كان بداخله نسختان من كتابي. سحبتُ نسخةً ورحتُ أتأملُ غلافها الأول الذي كُتبت عليه كلمة "الرواقي" بخط بارز باللون الأحمر، وحمل صورةً لتمثال "زِينون". من المصادفات التي لم تَعد مُستغربة لديَّ أن يقع نظري على خطأ ما في أول تصفح لأول نسخة، لهذا نظرتُ سريعاً لشكل الصفحات المطبوعة ثم أغلقتُ النسخة. ورحتُ أتابع الناشر الذي كان لا يزال في بداية العشرين قناة الأولى ضمن قائمة تزيد عن الثلاثمائة. حين رآني أضع النسخة جانباً لم يسألني عن رأيي، ولكنه فاجأني بسؤالٍ حول الجملة الأولى:

- هل تنتظرُ المخلِّص؟

ومع أن سؤاله أدهشني، ليس لمحتواه ولكن للحظة التي اختارها لإلقائه، إلا أنني أجبتُ وكأنني أجد فرصة للإبحار في فكرة الخلاص البعيدة المنال:

- بالنسبة لي لا أظن، أنا تألمتُ كثيراً لهذا فإنني أعرف كثيراً كما يقول الألمان. من يمتلك المعرفة يا صديقي يمتلك القوة. كانت المعرفة هي أول عملة اقتصادية عرفها الإنسان، وأول ثروة احتكرها النخبة في أي مجتمع إنساني منذُ نزل آدم إلى الأرض. لهذا تجدُ اليوم أن العالَم يدعو إلى العودة لاقتصاديات المعرفة بعد أن أوشك نظامه المالي على الإفلاس.

تنبهتُ إلى أنني استطردتُ كثيراً، لهذا عدتُ إلى الإجابة عن سؤاله:

- أما بالنسبة إلى العالم فإنه بحاجة إلى مخلّص. كل هذا الدمار لا يكنسه إلا مخلِّصٌ أو قيامة عاجلة.
- ولماذا يكون المخلِّصُ هامشياً، أو مجنوناً؟
- لأن جميع الأنبياء والمصلحين، إذا استثنينا سليمان وقلة من الأنبياء، كانوا هامشيين جاؤوا لسحب المعرفة من متن النخبة الممثلة للأقلية إلى هامش الأكثرية من المقهورين. أما الجنون فإنني لا أنظر إليه إلا كامتياز يثبتُ أن من يتصفُ به لا يمكن أن يكون تابعاً مسلوب الإرادة.

حضر المعلم مع حضور آخر مريديه إلى الرواق، وكان الإرهاق يبدو جلياً على صفحات وجهه، وما إن توسط مريديه حتى بدأ يمليهم:

- "قبل أن يشـــدّ الملك طيفَ قديســـته إلى الخاص، وقبل أن يشـــرع في الحديث عنها هي أكثر مما يتحدث عن الحبّ، سمع صوتَ لغط يعلو في باحة قصره، فقام بهدوء إلى خزانة ملابســـه كي يختار زيّا يناســـب حدثاً جللاً لا يظهر أن أحداً سـواه يدركه. لم يثنه ارتفاع اللغط ولا قرع الخام باب الحجرة عن الإصـــرار على الخروج في زينته، وبنظرة مشـــفقة وحزينة مرّ ببصـــره على أرجاء الحجرة، ثم توجه إلى الباب محافظاً على مشـيته الهادئة الوقورة، مصـراً على ألا يلتفت إلى الوراء. حين فتح الباب وجد خادمه يقف كشـــاهد قبر لا يميزه عمّا ســـواه من الشـــواهد إلا ما يوحي به منظره من رعب يحاول إخفاؤه، فتبسّـم الملك مما دفع الخام إلى التراجع فالنظر إلى الأرض، حينها مرّ الملك إلى خارج الحجره وأغلق الباب وراءه:
- لا بأس أيها الخادم الطيب.

كانت هذه العبارة كفيلة بجعل عيني الخادم تغرورقان بالدموع، فأضاف الملك:

- إن في قلبي من اليأس أضـــعاف ما في قلوبهم من ســـكينة وفأل، وإن في قلبي، أيها العزيز، من الشـــكّ أضـــعاف ما في قلوبهم من يقين.

ثم وضـــع الملك يده على كتف الخادم، وأخذ يمشـــي في الممر الطويل المفضـي إلى مجلســه الخاص، كان الخادم يمشـي منكّس الرأس منصتاً، فقال الملك:

- يراودني يقين أن هـذا اليوم هو يومي الأخير، لكنني أعمـل على جعل عقلي سـابقاً لفضـيلة الابتسـامة البلهاء. سـتتذكر هذا أيها العجوز الطيـب، وســـتتذكر أنك كنـتَ تراني دوماً ملازماً لعزلتي الخاصة، ألم أقل لك من قبل: من أراد اعتزال الناس فلا بد أن يكون له يقينه الخاص الذي يوازي اعتزاله وإلا فإن عزلته حينئذ ستكون بلا جدوى؟!.

توقف الملك، والتفت إلى الخادم الذي لم يجب، لكن قلقاً ظهر جلياً على وجه الخادم ليشي بأنه على ثقة أن نهاية سيده قد حانت:

- لم أكن قـادراً على خيـانـة مـا أؤمن بـه وإلا صـــارت أيـامي الماضـية بلا معنى، إنني أخرج اليوم لمواجهة يقين يسـاوي ما أنفقتُ من أعوام في قراءة الناس وتأمل ما يفعلون. ليس هناك أكثر خسـارة من رجل يقضـــي العمر في حمل مبادئ تفشـل عند أول اختبار. وها أنا اليوم أقف كي أختبر ماضـيّ بإلقائه في المستقبل، فإما أن يفشـل فأموتُ حسـرةً، وإما أن ينجح فأُقتَلُ على أيدي هؤلاء الحُـــــفّاظ. وعلى أية حال، إنه يوم خروجي لمواجهة العامة، وربما كان يومي الأخير، لكنني أمضي متلمّساً وطناً لائقاً بالغد.

صمتَ الملك، قبل أن يقرر حقيقة معرفته بما سيواجهه:

- ما جاء أحدٌ بما ينكره الغوغاء إلا دفع دمَه ثمناً له".

ولأول مرة لا ينهض المعلم من مجلســه كالملدوغ. اليوم وبنصـف ابتســامة حافظ على جلســته بعد انتهائه من أماليه. كان ينظر إلى جميع مريديه الإثني عشــر بمحبة، ينظر ملياً إلى كل واحدٍ منهم حتى لكأنه ينكر البقية قبل أن ينقل بصــره إلى الآخر. كان مريدوه يظنون أنه سـيواصـل الإملاء إلا أنه وقف ببطء ولبس خفيه. أيضـاً، كانت المرة الأولى التي لا يغادر فيها حافياً، وحين نظر إليهم نظرة أخيرة قبل أن يغادرهم أدرك أقدم مريديه أن هذا اليوم سيكون آخر عهده بمعلمه، فقام وتبع المعلم خلسة حتى وصل إلى آخر الرواق، وقبل أن ينعطف التفتَ المعلم وراءه موجهاً الحديث إلي مريده:

- "لماذا تتبعني يا بُني؟ كم أشــفقُ عليك من حمل التركة الثقيلة لبُطرس".

أطرق المريدُ إلى الأرض وبدا أنه لم يفهم ما يقول معلمه الذي أكمل حديثه مشيراً إلى العهد الجديد:

- "الحق أقول لك يا بطرس اليوم في هذه الليلة قبل صــياح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات".

فهم المريدُ إشارة معلمه فدمعت عيناه، ليودعه المعلم مُعتذراً:

- "عندما تصبح في مثل سِنّي ستغفر لي حتماً، لأنك ستدرك معنى أنَّ شــيخاً يحمل وزر المعرفة لا يعود قادراً على احتمال عمى الثقة، ولا الاطمئنان إلى بلادة الإيمان".

ثم مضى.

قيل إنه كان يتبَع خطواتَ ملكٍ عظيمٍ تجاوزت مملكته ضيق الجغرافيا وصلف التاريخ، وقيل إن المعلم كان ينقشُ أثراً أبدياً للعابرين نحو شموس الموسيقى التي يحبسها بين أصابعه فتنفذ من خلال روحه ليراها الناس، وقيل إنه كان ينساب مرتجفاً على عطش الشوارع المنسية كقطرات المطر النادرة في صحراء الله.

رسم لي شكل قيود الأطفال الذين كان يحتفظ بهم عامل الإمام في سجنه بناحية "زراجة". كنا نجلس في مقهى دريم لاند، وهي المرة لأولى التي أجلس معه في مكان عامٍ منذ ما يقارب ست سنوات هي سنوات معرفتي به. كنتُ أفكر في طريقة سجن الأطفال في قلعة "المَرْدَع"، وهو ما سألته عنه ليقوم

برســم القيد على ورقة صــغيرة أخرجها من جيبه، ثم أشــار إلى الحلقتَين اللتين رسمهما:

- حلقتـان توضــعـان في أقـدام الطفـل، ثم تُغلقـان بمطرقـة كبيرة الحجم حتى تلتحمـان حول الســاقين. يُقعي الرهينـة داعيـاً ألا يخطئ الحارس وهو يضــرب طرفاً من طرفي إحدى الحلقتين لأن خطأه كان يعني أنه سيسحق الساق.

بعـد ذلـك أشــار إلى مـا رســمـه من مســتطيلين متـداخلين يربطـان بين الحلقتين:

- وهـذان يشــكلان قيـد الحـديـد الـذي يربـط مـا بين الحلقتين. هـذا القيد اسمه "سَيَّار"، وهو خاص بالأطفال، أما عتاة المجرمين

ورفع رأسه محولاً نظره من الورقة ذات الرسم إليَّ:

- أعني عتـاة المجرمين ليس بـالنظر إلى مـا اقترفوه من ذنْـب ولكن بالنظر إلى إرادة الإمام، هؤلاء يتم تقييدهم بقيد خاص يســمونه "الرَّعـد"، وهو ســلســلـة ضـخمة تربط عنق المســجون بيديه وقـدميـه. وهنـاك قيـد اســمـه "الحِلْقـة" وهو أخف القيود ربطاً للمســجـون، ويكون عبـارة عن حلقـة واحـدة تُثبَّـتْ في قــدم المســجون. هـذا القيـد خـاصٌ بـالمســاجين الـذين يُراد أن يكون قيدهم مجرد علامة على أن سجنهم مُخفف لأن الإمام يرى أنهم لا يشكلون خطراً حتى لو كانوا من أخطر المجرمين.

تحدثنا حول أمور مختلفة، وكنتُ أدفعه للحديث حول حياته. لكنه هو من أراد أن يختم حديثه برواية ما حدث معه في منتصف السبعينيات الميلادية، ومع أنني لم أفهم سر اختياره لهذه الحادثة إلا أنني كنتُ أنصتُ إلى كل ما يقول:

- عام 75 للميلاد كنتُ أسكن مع مجموعة من الفنانين في مُجمَّع فلل بمدينة الرياض، كان قد تم استئجارها للمشاركين في إحياء زواج الأمير بدر بن عبدالمحسن من ابنة الأمير خالد بن عبدالعزيز، وكان يفترض أن يكون الزواج يوم الخميس ليلة الجمعة. تم نقلنا يوم الثلاثاء السابق مباشرة لموعد الزواج إلى قصر ولي العهد الأمير خالد، كانت معي فرقة الإذاعة والتلفزيون السعودي، ومعي من الفنانين طلال مداح، ومن الفنانين الجدد علي عبدالكريم ومحمد عمر. بدأنا إحدى البروفات التي كانت حول أحد ألحاني وفي أثناء عملنا على البروفة. دُفع باب الصالة التي كنا فيها، وإذا بأحد الحراس يقول كلاماً لم أستوعبه، لكنني صرختُ فيه: "اخرج وأغلق الباب خلفك".

شرب من قهوته، ثم قال:

- بقيتُ أدندن على عودي مع عزف بعض أفراد الفرقة بينما توقف البعض الآخر، وكانوا مشدوهين. استمرت دندنتي و أنا أحاول استيعاب ما قاله الحارس، ليقطع كل هذه الفوضى أحد كبار منسوبي الحرس الملكي الذي دفع الباب وصاح بنا وهو يرتعد خوفاً وهلعاً: "تعزفون الموسيقى وقد قُتل الملك الآن؟!"

بعد أســابيع من صــدور "الرواقي" جاءتني بعض تعليقات القراء، كان جُلها يســتحق أن يُطبَع ويُحتَفظُ به. منها ما دار حول المعلِّم؛ كسـؤال أحدهم عن سرِّ تحوله الغريب من طفل يبحث عن رصاصة تغسل صدره من أثر الحقد الذي علق به نتيجة ظلم الإمام إلى شــيخ يبشِّــر بســيادة الملكية. أو تعقيب قارئ آخر حين رأى في المعلِّم نموذجاً للطريق الطويلة التي يجب أن يســلكها من يريد الوصــول إلى الحكمة. كل تعليق وردني حول المعلم لم أعقب عليه، خصــوصــاً أن أوتوقراطيتي أحبتْ كثيراً هذا التحول؛ فصــار الرد أمراً أقرب للتورط في ترويج وصايا المعلِّم والدفاع عنها.

إلا أن الكثير من رســائل القراء كان يدور حول قصــة مريم. لا أدري كيف ألقيتُ بمريم في كتابي، ربما كانت هي من تسرَّبَ إليه دون علمي. وبصدق، لو لم يسألني الناشر عن اسمها بعد أن سلمته المخطوط لبقيتُ موقناً أنها لم تكن حاضرة في كتابي بأي شكل. كانت مجمل أسئلتهم عن قصتها تدور حول أمرين، أولاهما أنها هجرتك دون سبب معقول؟ والآخر أن قصتها مبتورة.

ذات السؤالين كررهما صديق أعلم أنه يحرص على قراءة ما أكتب:

- كأن مريم في كتابك شـخصـية تتحرك بلا دوافع مقنعة خصـوصـاً حين هجرتك؟ ثم إني شعرت أن قصتها ناقصة!

قلتُ:

- هكذا جاءت الحكاية.

مكتفياً بإجابتي هذه.

كيف يمكن إقناع أحد عن الفرق بين الواقع والمُتخيَّل في الفن؟ ولماذا على كل حكاية أن تكون سيرة لكاتبها؟ "هجرتك"!، ما أسوأ هذه الكاف البائسة. وحتى لو كانت حكايتي معها حقيقية فإنني لن أستطيع سرد تفاصيل من قِبيل ما حدث معي بعد ما يزيد عن سنتين على رحيلها إلى المدينة. كانت قد تزوجتْ قبل مُضيّ أقل من شهر على لقائنا الأخير في المخابز الفرنسية، ولم أسمع عنها شيئاً بعد ذلك إلا حين اتصلت بي لمرتين متتابعتين في أسبوع واحد. اقتصر اتصالها الأول على السؤال عنّي وعن ما استجد معي، واطلاعي على أخبارها. قالت إنها تزوجت، وجدت رجلاً مناسباً من أصدقاء أخيها عبدالمجيد، وقالت إن لديها ابنة عمرها الآن خمسة أشهر. ثم جاء اتصالها الثاني بعده بيوم أو يومين، كانت تبكي ولعنتني كثيراً، كنتُ أحاول فهم سبب بكائها، أو سبباً لغضبها الذي جعلها تصفني بأبشع الألفاظ، لكنها استمرت في شتمي دون أن تنصت لتوسلاتي بأن تتوقف لأفهم ما حل بها، ثم أغلقت الهاتف.

اختفت مريم بعد ذلك لأكثر من عام قبل أن تُعاود اتصالها بي وتخبرني أنها أنجبت طفلاً وسمتُه باسمي:

- عمره أقل من شهر، وأجمل منكَ.

كنتُ أستمع إليها لعل فرصة مناسبة تتيح لي سؤالها عن شتائمها في اتصالها الأخير بي، وعن سر غضبها. لكنها كانت تثرثر بلا توقف. حين أنهتْ المكالمة حرصتْ على أن تُعطيني رقم جوالها. بعد ذلك بشهرين اتصلت بي باكية، لكنها لم تكن غاضبةً بقدر ما كانت حزينة، سألتني عن سبب عدم اتصالي بها خلال الشهرين الماضيين، وأخبرتني أنها في جدة. وأنها تريدُ أن تراني.

وبذات بساطتها في الخروج معي كانت تنتظرني في منتزه الأمواج، حين اقتربتُ من بوابة المنتزه اتصلتُ بها لتخرج إليَّ. لم نكد ننطلق من أمام المنتزه إلا وهي

تخبرني أنها لا تريد أن تعود إليهم. فهمتُ أنها تعني أختها ولطيفة. وعرفتُ منها تلك الليلة أنها طُلِّقتْ من زوجها، وأنني أنا السبب في تركها لمواجهة هذا المصير الذي تتجرع مرارته الآن. قالت إنني لم أبذل ما يكفي من جهد للاحتفاظ بها، وأنني طلبتُ الزواج منها فقط لإبعادها عنّي، وأنها كانت أصغر من أن تُقرر أمراً يتعلق بشأن الزواج. كنتُ أكتفي بالإنصات إليها ونحن نجلس في السيارة مواجهَين للبحر:

- قالت لي أختي إن زواجاً كهذا سينتهي بالطلاق، وأكدت الكلام ذاته لطيفة التي قالت إن الزواج عن حب في السعودية مجرد خرافة ستتحقق إن طلعت الشمس من مغربها.

الحب جزءٌ من الحرية، لا يمكن أن تُحبَّ إلا إذا كنتَ حُرَّاً، لذا؛ كنتُ شبه متأكد في لقائنا الأخير بالمخابز الفرنسية أن مريم واقعة تحت سطوة آراء رفيقاتها اللواتي صنعن أغلالهن بأيديهن. ماذا أتوقع من أختها المتزوجة بالوراثة، أو من ابنة خالتها الملعونة بسبب غشاء بكارتها المطاطي. لم أحاول أن أعود إلى كل تلك التفاصيل واكتفيتُ بالاستماع، عرفتُ سر غضبها منّي قبل أكثر من عام، كنتُ برأيها سبب ما حدث، هل كانت تتوقّعُ منّي أن أتسلق جدار منزل أختها وأختطفها رغماً عنها. نعم كان هذا هو سبب غضبها منّي وليس السبب من أحطن بها ليرشدنها إلى أفضل الطرق للحصول على حياة زوجية سعيدة. كن مرشداتها بذهنية مجتمع يحب إرشاد الناس إلى ما يجب أن يسلكوه في أدق أدق تفاصيل حياتهم، وإلى أفضل أساليب الحياة الأسرية الصالحة، وليس ثمَّة ما يدلل على نجاح الوصايا الغبية لهذا المجتمع الملائكي إلا وجود ما يقرب من ألفي حالة طلاق يومياً في السعودية.

حين أخبرتُها أنني ســأعيدها إلى المنتزه لتلحق بأختها وأننا ســنلتقي مُجدداً، قالت إنها لا تريد أن تعود إلى منزل أختها ولا إلى حياتها السابقة أبداً، واقترحتْ أن نذهب إلى منزلي. كان من السهل أن أنقاد إلى ما تقترحه، إلا أنني خشـيتُ أن تتهشـم مريمُ في ذاكرتي. مريم التي كانت في زمن الزهور، والتي يُخيَّل إليَّ أنني لم أرها بعد جلسـتنا الأخيرة في المخابز الفرنسـية، وأنني لن أراها أبداً إلا في قِطع الثلج التي أدمنتُ ابتلاعها.

انتهت

حامد بن عبدالهادي بن عقيل

شاعر وناقد وروائي - السعودية

من مواليد عام 1974 في بني سعد بجنوب مدينة الطائف. شارك في أمسيات شعرية وملتقيات ثقافية داخل السعودية وخارجها. وكتب عمودا يوميا في صحيفة شمس السعودية، وله مقالات منشورة في عدد من الصحف السعودية والعربية، وكذلك في الدوريات والمجلات الأدبية.

شارك في العديد من معارض الكتاب العربية والدولية.

ترجمت بعض نصوصه الشعرية إلى الإنجليزية ضمن أنطولوجيا الشعر السعودي. وترجمت روايته "الرواقي" إلى اليونانية. كما ترجم له إلى الإسبانية والفرنسية والكردية.

شريك مساهم في تأسيس دار جدار للثقافة والنشر بمدينة الإسكندرية بجمهورية مصر العربية 2008م.

صدر له

شعر:

قصيدتان للمغنّي | مرثيتان توغلان في دمي (1999) شِعر (دار الجديد: بيروت).

يوم الرّب العظيم (2005) شعر (دار الحداثة: بيروت).

يجرّد فوضاه (2009) شِعر (طوى للإعلام والنشر: لندن).

إله المسخ (2010) شِعر (طوى للإعلام والنشر: لندن).

في عالمٍ ننكره (2024) شِعر (دار جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).

الوحدة حريّةٌ حزينة (2025) شِعر (محترَف أوكسجين: أونتاريو).

رواية:

الرواقي (2008) رواية (دار جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية). طبعة ثانية (2009) (طوى للإعلام والنشر: لندن). طبعة ثالثة (2023) (دار ريادة: جدة). طبعة رابعة (2024) الرواقي (2024) ترجمة بيرسا كوموتسي (دار إسكندرية: أثينا).

جمهورية أهريمان (2024) رواية (دار جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).
منازل الموت (2025) رواية (رياض نجيب الرّيس للكتب والنشر: بيروت).

نقد:

فقه الفوضى (2005) دراسة نقدية تأويلية في رواية «الفردوس اليباب» لليلى الجُهني (دار شرقيات: القاهرة). طبعة ثانية (2006) (دار الكنوز الأدبية: بيروت). طبعة ثالثة (2022) (دار ريادة: جدة).

إله التدمير (2010) دراسة نفسية تأويلية في «الإرهابي20» لعبدالله ثابت. (طوى للإعلام والنشر: لندن). طبعة ثانية (2022) (دار ريادة: جدة).

عصر القارئ (2011) مقدمة في التأويلية. (طوى للإعلام والنشر: لندن). طبعة ثانية (2022) (دار ريادة: جدة).

ممحاةُ العدم | دراسات سيميائية في الأدب العُماني (2024)، (دار الحوار للنشر والتوزيع: اللاذقية).

خَطَّاب راهناً (2024) دراسة سيميائية في شعر عبداللطيف خطّاب وفق نظرية المقدرة الأدبية (دار ريادة: جدة).

كتابة وقضايا:

سيرة افتراضية | مسيح (2006) (دار الكنوز الأدبية: بيروت).

سيرة افتراضية | سبينوزا (2007) (دار الكنوز الأدبية: بيروت).

سيرة افتراضية | أماديوس (2009) (دار الانتشار العربي: بيروت، إصدارات نادي حائل الأدبي).

صناعة الكهنوت (2025) دراسة في أبستمولوجية في تحول الأديان السماوية من الاستعمال الديني إلى الاستخدام الدنيوي، (دار صفصافة للنشر والتوزيع: القاهرة).

NOVEL

قالوا عن الرواقي

الرواقي إعادة صياغة للفيلسوف اليوناني في قالبٍ جديد وناقد، فيُطلقه -الكاتب- كرمزٍ لا يمكن كشفه إلا بمزيدٍ من القراءة والتأويل.

سوزان خواتمي: السفير - بيروت 13 يونيو 2013

يُعد، الملحن طاهر حسين، من رموز المشهد الثقافي والفني في السعودية منذ السبعينات؛ وكتب شيئاً من سيرته الروائي حامد بن عقيل في روايته «الرواقي».

علي الرباعي: عكاظ - جدة 17 مارس 2023

الرواية تعني لي أن ابن عقيل يقدم لنا تفسيرا مركّزا، وربما غير واع، حول العالم الذي ربما كان ابن عقيل ينظر إليه، وهكذا كتب ابن عقيل لاحقاً: «ستغرق جدة ولكن بهدوء شديد وبطء، سننام طويلا وحين نستيقظ تحت الماء سنجد أنفسنا مع الكائنات البحرية ونختنق».

عبدالله الحكيم: عكاظ – جدة 25 يونيو 2013

الرواقي مشروع طَموح لبذر نواة التجديد في الرواية السعودية، وتكوين اتجاه يطور مفهوم القراءة ويبلور دوراً واضحاً للقارئ.

أحمد سعيد ربيع: إيلاف – 06 يونيو 2010

HAMED BIN AQEEL

THE STOIC

9 781326 206840

Jidar
Culture & Publishing